بلاغة القصر (بإنما)

عند الإمام على بن أبى طالب

فى كتاب نهج البلاغة

إعداد

دكتور / صفاء على عبد الغنى
قسم اللغة العربية
كلية البنات الإسلامية جامعة الأزهر

المقدمة

أهدت لي صديقتي كتاب نهج البلاغة مصادفة، فلما توفرت لي قراءته قراءة متأنية بعد قراءة سابقة عابرة،فتأملت جمل تراكيبه وجدتني في عالم من المعاني،وتحيرت للأساليب المتعددة في البلاغة،وبعد تردد-لتعدد الأساليب -وقع اختياري على إحدى الصور البيانية،ولكن ظلت بي الرغبة إلى بحث مضمون الجملة عبر أساليب القصر، وبحث التركيب اللفظي وأثره في المعاني،فأجلّت الاختيار الأول، ولطول الموضوع اقتصر بحثي على أسلوب واحد من تلك الأساليب،ألا وهو:القصر بـ(إنما) ومدلولها البلاغي في خطب الإمام عليّ -كرم الله وجهه- في كتاب: (نهج البلاغة).مدلول القصر بـ(إنما) عند الإمام علي في كتاب : (نهج البلاغة).

إن شخصية الإمام عليّ من أقوى الشخصيات التي عرفها التاريخ ،ولست بسبيل أن أُفَصِّل ذلك،وإنما سبيلي أن أبحث جانبًا من جوانب هذه الشخصية،هو جانب البلاغة لتركيبية،والتي بلغت من العمق والبيان مبلغاً اقتضى أن يقف عندها الباحثون ، وبصفتي إحدى الدارسات للبلاغة طلبت هذا الجانب.

وللذوق البلاغي ملتقى بفكر وخيال وعاطفة الإمام عليّ ،لأنه كان بليغاً له نهج من الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون، وكان هذا البحث رغبة في كشف السر البلاغي للتعبير بـ(إنما) ،وكيف كان هذا الأسلوب ممرًا لتأكيد أغراض الكلام عند الإمام عليّ-كرم الله وجهه- للوصول إلى مفهوم المفردات،وأغزره مادة -بعد النفي والاستثناء- وأرفعه أسلوبًا،وأجمعه لجلائل المعاني،فأردت أن أقف على دور ألفاظه في صياغة المعاني التي سيقت للدلالة عليه، وأعترف بأنني كلما انتقلت من موضع في البحث إلى موضع آخر أحس بتغير المشاهد،وتنوع المعاني في حلل متجددة ،وجزالة التركيب في غير تعقيد.

هذا وقد ورد أسلوب القصر بـ(إنما) في كتاب نهج البلاغة فيما يقرب من أربعين موضعًا،قمت بدراسة ما انطوت عليه من بعض الأسرار، للوقوف على الغرض الدافع للقصر بها في كل موضع من تلك المواضع ،فانظر إلى قول الإمام عليّ :(وإنما الدنيا منتهى بصر

الأعمى- وإنما هي كالمعلوفة للمدى- إنما مثلي بينكم مثل السراج في الظلمة يستضيء بما من ولجها-وإنما مثل من خبر الدنيا كمثل قوم سفر نبا بهم منزل جديب - وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى-فإنما مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ، قاتل سمها-وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها،وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع- فإنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه،وأخذوهم بالباطل فاقتدوه ...)إلى غير ذلك مما سيرد معنا في محتوى هذه الدراسة.

وأرجو أن يكون فيما درست من وجيز الدراسة فائدة لكل طالبي البلاغة، وأن يقف عليها مستقبلًا كل من أوتي إلى ذلك سبيلًا.

ولذا اقتضت طبيعة البحث أن يكون على النحو التالي:-

١- تمهيد عن (إنما) واختلاف العلماء حول إفادتها للقصر.

٢- المبحث الأول:القصر بـ(إنما)عند الإمام عليٍّ في الأمر الجلي المقبول لدى المخاطب، وأثر القصر بها في دلالة المعنى المراد.

٣- المبحث الثاني:القصر بـ(إنما)عند الإمام عليٍّ في الأمر الخفي الذي من شأنه الإنكار والرفض لدى المخاطب،وأثر القصر بها في دلالة ذلك المعنى.

٤- الخاتمة وترصد فيها نتائج الدراسة.

هذا وكتاب نهج البلاغة هو كتاب يضم في محتواه ما جمعه الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين : عليّ بن أبي طالب.وقد شرح الإمام محمد عبده هذا الكتاب وعلق- في مقدمة الكتاب-على هذا الاسم حين قال:" ولا أعلم اسماً أليق بالدلالة على معناه منه،وليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب بأن أزيد مما دل عليه اسمه"(١).

---

(١) نهج البلاغة: شرح الإمام محمد عبده : ١/ صـ ٤- دار الفجر للتراث -١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

والشريف الرضي : محمد بن أبي الحسن بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب،ولذا سمي بالشريف، ولد في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة،واشتغل بالعلم ففاق في الفقه والفرائض، و بذّ أهل زمانه في العلم والأدب، وابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل ،وأجود ما جمع من شعره مجموع أبي حكيم الحيرى، طبع في مجلدين،ومجموعة ما دار بينه وبين أبي إسحاق الصابئ من الرسائل،طبعت باسم رسائل الصابئ والشريف الرضي،ولزكي مبارك:عبقرية الشريف الرضي،ولمحمد رضا آل كاشف : الشريف الرضي،([1]). وله كتاب(تلخيص البيان في مجازات القرآن)،توفي في المحرم سنة أربع وأربعمائة ودفن بداره بالكرخ.([2])

والإمام عليٌّ:أبو الحسن عليٌّ بن أبي طالب،وابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وزوج ابنته،ورابع الخلفاء الراشدين،ولد بعد مولد النبي بثانين وثلاثين سنة، هو أول من آمن من الصبيان وكان شجاعاً لا يشق له غبار، شهد الغزوات كلها مع النبي إلا غزوة تبوك، و أبلي في نصرة رسول الله ما لم يبله أحد،ولما قتل عثمان بن أبي عفان بايعه الناس بالحجاز،وامتنع من بيعته معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام غضباً منهم لمقتل عثمان،وحدث من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين،وافتراقهم إلى طائفتين ،فتحاربوا مدة حتى قتل أحد الخوارج عليًّا غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ه، وكانت مدة الخلافة خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

كان من أفصح الناس بعد رسول الله ، وأكثرهم علماً وزهداً وشدة في الحق،وهو إمام الخطباء من العرب بعد رسول الله– صلى الله عليه وسلم – وخطبه تستمد المعاني والأساليب من القرآن والسنة.

---

[1]) الأعلام : خير الدين الزركلي : مج٦/٩٩–دار العلم للملايين بيروت ط ثامنة يوليو ١٩٨٩م.

[2]) سير أعلام النبلاء: ٨٧/٣ الذهبي ت نخبة من الأساتذة مؤسسة الرسالة –ط ثالثة ١٤٠٥ه ١٩٨٥م.

تمهيد

ورد القصر بـ(إنما) في الأسلوب القرآني وكانت واقعة في مقامات الجدل والمنازعة،أو الإعلام بما من شأنه أن يكون معلومًا،وقد ورد استعمالها في مئة وأربعة وعشرين موضعًا فيه، منها خمسة وستون في قصر الأسماء،وأربعون في قصر الأفعال المضارعة. وسبعة عشر في الأفعال الماضية...ووردت في قصر صفة الألوهية والوحدانية على الله وحده دون سواه، في مقام تصحيح الاعتقاد؛ اعتقاد المخاطبين من التعدد إلى الوحدانية والمخاطبون موغلون في الإنكار،وهو أمر مستبعد مستنكر بالنسبة للمخاطبين ،والمقام للنفي والاستثناء واستعملت(إنما)تنزيلا للمنكر منزلة غير المنكر؛حيث الأدلة ظاهرة والبراهين واضحة على وحدانيته تعالى،ولأن الصفة في إثباتها تحتاج للتأكيد والتقرير أتبع أسلوب القصر بـ(إنما)-لقصوره في ذلك الوصف الصريح في إفادة الوحدانية-(واحد)...كما أنها لم تحظ بشرف قصر الألوهية وإثبات الوحدانية لله تعالى إلا في ثمانية مواضع،احتاجت في جميعها إلى التعقيب بالوصف بالتفرد(إنما الله إله واحد) لعدم غنائها في إفادة الوحدانية، فقد أفادت فقط قصر الذات على الألوهية ،وذلك لا يمنع من أن تقع الصفة لموصوف آخر.([1])

وقد اختلف علماء البلاغة في القصر بـ(إنما)،فأثبته الجمهور ونفاه كثيرون،وعلى رأس القائلين بعدم إفادتها القصر:أبو حيان الأندلسي حيث قال "وفي ألفاظ المتأخرين من النحويين وبعض أهل الأصول أنها للحصر،وكونها مركبة من (ما) النافية دخل عليها(إن) التي للإثبات فأدت الحصر،قول ركيك فاسد، صادر من غير عارف بالنحو، والذي نذهب إليه أنها لا تدل على الحصر بالوضع ؛كما أن الحصر لا يفهم من أخواتها التي كفت (بما) فلا فرق

---

[1]) بتصرف:أسلوب القصر في محكم النظم د/هاشم الديب:٢٨٢،٢٨١،٢٣٣-دار الطباعة المحمدية ط أولى ١٤١٠هـ.

بين: لعل زيدًا قائم ولعل ما زيد قائم، وكذلك إن زيدًا قائم وإنما زيد قائم، وإذا فهم الحصر فإنما يفهم من سياق الكلام لا أن (إنما) دلت عليه ..."([1]).

وفي تعقيبي عليه أقول-والله أعلم -إن تعليله بأنها كفت عن العمل لا يعني بالضرورة عدم دلالتها للقصر،بل تلك خاصيتها، وقياسه (إنما) على (لعل) صحيح من وجه وليس من كل الوجوه، بدلالة استعمال الأسلوب القرآني لها،كما أن قوله بإفادة الحصر من السياق يرده كيف يكون السياق وحده سبباً في الحصر؟ ولِمَ يرتبط وجود القصر بالسياق مع (إنما) خاصة ولم يرد معها أسلوب آخر محدد ومخصص له؟! ولم يكون هذا السياق فقط مع إنما وليس مع غيرها؟!بل يرد كلامه أيضاً اختصاصها بحسن التعريض بأمر هو مقتضى معنى الكلام بعدها من بين أساليب القصر.

وقد ذهب علماء البلاغة إلى أنها تفيد الحصر لتضمنها معنى (ما و إلا)،واستدلوا على ذلك بأمور منها :

١-اتفاق المفسرين -وهم أئمة اللغة والبيان-على أن معنى قوله تعالى(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ)([2])

بنصب الميتةهو:ما حرم عليكم إلا الميتة ...فعلى قراءة نصب الميتة وحرم مبنيًا للفاعل تكون (ما) في (إنما) كافة قطعًا،إذ لو كانت موصولة لبقي (إن) بلا خبر، والموصول بلا عائد بل لم يبق للكلام معنى أصلًا،وإذا فسروا قراءة النصب بـ(ما حرم عليكم إلا الميتة) ثبت أن(إنما) متضمنة معنى ما و إلا...([3]).

٢-قول النحاة إن (إنما)لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه، فهي لا تثبت ما بعدها فقط،وإلا لما كان هناك فرق بين قولك : شوقي شاعر،وقولك : إنما شوقي شاعر،فالتعبير

---

[1]) البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي /ج١/١٩١- دار الكتب العلمية -بيروت - ط أولى- ١٤٢٢هـ-٢٠٠٠م.

[2]) سورة النحل آية (١١٥).

[3]) ينظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص /ج٢/١٩٦-ط دار الكتب العلمية - بيروت- ١٩٩٥م.

الأول يدل على إثبات الشاعرية لشوقي فقط،أما التعبير الثاني فيفيد نفي ما سوى الشاعرية،وهذا هو معنى القصر.

٣- صحة انفصال الضمير معها، تقول:إنما يسافر أنا،كما تقول:ما يسافر إلا أنا،والنحويو يقولون :إن الضمير المتصل لا يؤتى به منفصلا إلا إذا كان محصوراً فيه،فتقول :أكرم الضيف،ولا تقول أكرم أنا الضيف؛لأن الضمير المنفصل هنا توكيد لا فاعل،فإذا أردت الحصر وأنه لا يقوم بالإكرام سواك قلت: ما يكرم الضيف إلا أنا،والضمير هنا فاعل وليس توكيدًا،وجئ به كذلك لغرض القصر،وهكذا قالوا في(إنما) فيقال: إنما يكرم الضيف أنا،فصح انفصال الضمير معها كما صح في(ما) و(إلا) ([1]). ومثل هذا من الشواهد قول الفرزدق في الفخر :

أنا الزائد الحامي الذمار وإنما *** يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي([2])

إذ لو كان المراد الإيجاب لم يستقم لأنك لا تقول : يدافع أنا،وإنما تقول:أدافع،ولكن لما كان المعنى :ما يدافع إلا أنا ،فصل الضمير كما يفصل مع النفي والاستثناء؛ ليتأتى له ما قصد وهو تخصيص المدافع لا المدافع عنه ، إذ لو قال: وإنما أدافع عن أحسابهم،لصار المعنى أنه يدافع عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم، وليس ذلك بمقصود لما فيه من قصور المدح،والمقام مقام مبالغة،إذ هو في معرض التفاخر وعد المآثر([3]).

٤-وقد أضاف بهاء الدين السبكي دليلاً آخر بقوله"ومن أدلة إفادتها للقصر قوله تعالى : [إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ]([4]) وقوله تعالى: [قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ]([5])فإنه إنما يحصل مطابقة

---

[1]) ينظر معاني التراكيب : ٣١/٢ د/عبد الفتاح لاشين ط دار الفكر.

[2]) البيت قاله الفرزدق لما قيد نفسه ليحفظ القرآن وهجر الشعر فجاءه نساء مجاشع ،وقلن له إن جريراً هتك عورات نسائك ، وما زلن به حتى أحفظنه، فقال مقطوعته التي منها ذلك البيت.

[3]) علوم البلاغة : أحمد مصطفى المراغي : ١٢٨ المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٨ م ١٤٢٩هـ.

[4]) سورة هود آية (٣٣) .

[5]) سورة الأعراف آية (١٨٧).

الجواب إذا كانت(إنما) للحصر ليكون معناه : لا آتيكم به إنما يأتيكم به الله ،ولا أعلمها إنما يعلمها الله([1]) وهذا معنى القصر إثبات ونفي.وقد علق السيوطي على هذا بقوله "ولا يستقيم المعنى في هذه الآيات ونحوها إلا بالحصر"([2])

وهذا الذي ساقه السبكي أدلة تعتمد على تصرف إنما في الأسلوب ،وكيف أتى بها في الكلام الفصيح مأتى لا يصلح إلا بالقصر.وبعد تلك الدلائل المشيرة إلى القصر بها ،واتفاق المفسرين والنحويين على أسلوبها،واستقرار استعمال إنما في القصر يتأتي بعد ذلك الحديث عن مقامات ورودها أو استعمالها،ونجد الإمام عبد القاهر يحدد لنا مقام (إنما) فيقول " اعلم أن موضع (إنما) على أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب ،ولا يدفع صحته، أو لما يترل هذه المترلة"([3]).

فتدخل(إنما)على المعاني المأنوسة القريبة من النفوس؛لأنها بجرسها ودلالتها لا تكون إلا في المواقف الهادئة اللينة الناعمة دون جلبة أو ثورة،أي أنها تأتي في الأمور التي يدعى أنها من الوضوح بمكان،والتي ليست مجالاً للشك والإنكار،وقد تجئ (إنما) في موضع هو مجال للشك والإنكار،ويكون هناك سر بلاغي قصد من وراء هذا التتريل.وعلى هذا الأساس كان تقسيمي للمبحثين المراد دراستهما في بلاغة (إنما) في كلام الإمام عليّ.

والآن ننتقل إلى المبحث الأول في هذه الدراسة :

المبحث الأول : استعمال الإمام عليّ لـ(إنما) في الأمر الجلي :

والمراد بالجلي :أنه جلي في نفسه،مقبول لدى المتكلم كأنه لا ينهض أن يكون مثار جدل أو إنكار، حتى إن أنكره المتكلم فإنكاره على غير أساس([4]).

---

[1]) ينظر عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص :١٩٣/٢ .

[2]) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : ١٤٣/١ -١٨٤- ت/محمد علي البجاوي ط دار الفكر العربي.

[3]) دلائل الإعجاز:عبد القاهر الجرجاني : ٣٣٠/ت محمود محمد شاكر ط المدني ثالثة بجدة ١٤١٣ه ١٩٩٢م.

[4]) معترك الأقران: ١٤٣/١-١٨٤.

وتفسير ذلك أن الأصل في(إنما)أن تجئ لأمر من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره ،وإنما يراد تنبيهه فقط، فمثلا تقول للرجل:إنما هو صاحبك القديم،وإنما هو أخوك، لمن يعلم ذلك و يعترف به، لكنك تريد أن تنبهه لما يجب عليه من حرمة الصاحب،وحق الأخ، رققته وتستعطف قلبه.. (١). فالمخاطب لا يجهل هذه الحقيقة،ولا يماري في صحتها، وإنما هي معلومة عنده، ولكنك تنفذ من وراء هذا إلى معنى آخر؛هو أنه كان مقصرًا في القيام بما يجب عليه نحو صاحبه أو أخيه.

*** وأول ما ورد معنا في هذا الشأن من بلاغة الإمام عليّ-كرم الله وجهه- :

(فَإِنَّ الغَايَةَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ وَرَاءَكُمْ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ،تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ)(٢).

والمعنى : أن الساعة لا ريب فيها ، وإنما ينتظر بالأول مدة لا يبعث فيها،حتى يرد الآخرون وينقضي دور الإنسان من هذه الدنيا،ولا يبقى على وجه الأرض أحد،فتكون الساعة بعد هذا وذلك يوم يبعثون.وهذا استعراض مختصر سريع يمنح السمة الأخيرة لمشاهد الإنسانية،يرسم صلة الجنس المشترك بعضه ببعض في التعاقب والانتظار وكيفية اللقاء.

وبوقع الزمن المختصر يصوغ الإمام عليٌّ الصورة بأسلوب القصر الإضافي(٣) في عبارته(فإنما ينتظر بأولكم آخركم)وهو من قصر الصفة على الموصوف،إن المخاطبين يعلمون تلك الحقيقة الغائبة عن التفكير البشري ،لكن لما استشعر من المخاطبين الغفلة ؛أراد أن ينبههم ويصحح فكرهم،والتمس في القصر بـ(إنما) وسيلة، ليجعلها ذريعة إلى استدعاء ما يستوجبه التذكير بالموت والقيامة؛من بيع الدنيا والاستجابة له في الجهاد معه بعزيمة ثابتة، وقلب بائع للدنيا والهوى ، فكانت(إنما) هنا المعبر الموصل للأفكار والطريق الممهد للغايات.

---

١) علوم البلاغة : ١٣٠ .

٢) نهج البلاغة :١/ ٩١.

٣) القصر الإضافي : ما كان التخصيص فيه بحسب الإضافة إلى شيء آخر معين بالنسبة إلى جميع ما عداه.

ولنا أن نتخيل سقوط (إنما)من الكلام فيقال: ينتظر بأولكم آخركم فهل يكون وقع التعبير كما ورد معنا بأسلوب القصر؟وهل يتم التنبيه بنفس الأثر؟ألا ترى أنها أعلمتنا إثبات الانتظار للآخرين،ونفيه عن غيرهم دفعة واحدة،والمقام مقام مبالغة لتأكيد معرض النصح والإرشاد، والقصر قصر قلب؛لإثبات عكس اعتقاد المخاطب الذي انصرف عن أقرب الأشياء وأوضحها(الموت والحساب)إلى الارتكان إلى طول بقاء الدنيا والحرص عليها، فكانت(إنما)المنبه إلى تصحيح الاعتقاد، وقد خلى التعبير بها بينهم وبين البحث وراء تلك الحقيقة، فتخيل للسامع حاضرة لا متخيلة،وأنها تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها.

ويوضح الإمام عبد القاهر قيمة كل تعبير منهما في موضعه بقوله: " وفرقٌ بينَ أنْ يكونَ في الشيءِ معنَى الشيءِ وبينَ أن يكونَ الشيءُ للشيءِ على الإطلاق،يُبيِّنُ لك أنَّهما لا يكونان سواءً أنه ليس كلُّ كلامٍ يصلحُ فيه ما وإلا يصلحُ فيه إنما . ألا ترى أنها لا تصلحُ في مثلِ قولِه تعالى :﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾([1]) ولا في نحوِ قولِنا : ما أحدٌ إلاّ وهو يقولُ ذاك . إذ لو قلتَ : إنَّما مِنْ إلهٍ إلا اللّهُ وإنَّما أحَدٌ وهو يقولُ ذاك قلتَ ما لا يكونُ له معنًى . فإنْ قلتَ : إنَّ سببَ ذلك أن أحداً لا يقعُ إلاّ في النفيِ وما يَجْري مَجْرى النفي من النَهْي والاستفهام وأنَّ مِن المَزيدةَ في ما مِنْ إلهٍ إلاّ اللهُ كذلكَ لا تكونُ إلاّ في النفي . قيلَ : ففي هذا كفايةٌ بأنه اعترافٌ بأنْ ليسا سواءً لأنهما لو كانا سواءً لكانَ ينبغي أن يكونَ في (إنما) منَ النفي مثلُ ما يكونُ في (ما وإلاّ) . وكما وجدتَ إنما لا تصلحُ فيما ذكرنا تجدُ ما وإلاّ لا تصلحُ في ضربٍ من الكلام قد صلُحَت فيه إنما وذلكَ في مثلِ قولكَ : إنَّما هو درهمٌ لا ينارٌ . لو قلتَ : ما هو إلاّ درهمٌ لا دينار لم يكن شيئاً . وإذ قد بانَ بهذه الجملةِ ..."([2]).

ويجب علينا هنا أن نتوسع في الوقوف على خصائص التعبير،من حيث التضاد التخييلي بين حال وحال، بين كون الغاية في الأمام،والساعة في الوراء،بل بين

---

[1]) سورة آل عمران آية (٦٢).

[2]) دلائل الإعجاز: الإمام عبد القاهر:س١/٢٥٣ ت/ محمد التنجي دار الكتاب العربي بيروت ط أولى ١٩٩٥م، .

صورتين:إحداهما حاضرة الآن،والأخرى مستقبلة في الزمان،حيث يعمل الخيال في استحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها الصورة المنظورة ، وما بين الصورتين من مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان المفارقة بين تحقيق الهدف بالموت لأجله وبين تحقيق دخول الجنة،ولهذا جعل الصورتين متضادتين ، لتؤدي المفارقة الواضحة هذا الغرض الخاص (ارتباط الجهاد الذي هو الغاية بدخول الجنة)،والأجزاء للصورة بذلك موزعة بين اتجاهين،اتجاه حياتي دنيوي واتجاه ديني أخروي، بل عضد من تأكيد المعنى والتنبيه على الاتجاه الثاني تقديم الخبر على المبتدأ في (وإن وراءكم الساعة).

ونرى الإمام عليّ يصوغ المعنى بصورة أوضح وأوقع في الإخراج ودقة التصوير قاعدها استيعاب الحدود المنطقية في قوله :

***(فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ)([1]).

فالمخاطب يعلم أن له أجلاً معدوداً محدودًا بالقياس الزمني، لكن لما غرته الأماني وغره بالله الغرور تخيل المتكلم تناسي تلك الحقيقة من جهة المخاطب،وأراد تنبيهه لاستدعاء الدافعية الخيرية بداخله، فينسق الإطار والنطاق مع الصورة والمشهد، فيعرض الصورة من خلال الجانب البيئي الذي يناسب الفهم العربي، فيشبه الحياة الإنسانية ومدها بالظل الذي ترتبط مدة بقائه بالشمس،التي لها أيضاً أجل معدود وزمن محدود.

ولو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني(قصر مدة الحياة)؛ لاكتفى بالتشبيه فقط دون أسلوب القصر الوارد بـ(إنما)،لكنه أراد هذه الصورة بأسلوب القصر الإضافي الحقيقي،قصر موصوف على صفة، قصر قلب لتصحيح اعتقادهم لتتحد الألفاظ مع المعاني تحقيقاً لوحدة الرسم،وليتم التناسق مع الجزء المطروح في الصورة،لينبض بطبيعته بصورة حية للمعنى، حتى يتأكد المعنى بعد النهي الصريح،وكانت(إنما) هنا أسلوباً هادئاً ناعماً دون جلبة أو ثورة،مما يستدعي وضوح الأمر بمكان،لا يتوقع معه أي نوع من النقاش أو الجدال،وبهذا

---

[1] نهج البلاغة : ١/ ١٧٢.

كان التنوع في العرض،مع استعراض قدرة الإمام على صياغة السجع اللفظي،بين كلمة ممدود وكلمة معدود،وما فيه من تنبيه للسمع حتى ينتبه للمضمون.

وهاهو الإمام عليّ يكمل الصورة بجانب أكثر تحديداً،وأقوى تنفيراً يستغرق الفكر حتى يصل بالمتلقي إلى مرحلة الاقتناع بقوله:(كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعًى وَبِيٍّ (١) وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ،إِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمَدَى لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا ،إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا وَشَبَعَهَا أَمْرَهَا)(٢).

هذا كلام كأنه ثوب فصل على أقدار أهل الزمان،يصف فيه أحوال الغافلين عما يؤخذ من أعمارهم التي تطويها عنهم يد القدر ساعة بعد ساعة،والغافلين عما ينتظرهم في الآخرة من حساب،وذلك في معرض التشبيه التمثيلي الطويل المشهد والصور حتى تتملى العين المشهد؛لأنه معروض للعبرة وللتأثير الوجداني تعرض فيه التفاصيل، وتذكر فيه الخطوات، وتنسق فيه الأجزاء، ولست أجد في كلام البشر-بعد رسول الله- أبلغ من هذه الصورة في بيان شدة غفلة الإنسان حتى يتسرب الخوف والتأثير إلى أعماق النفس وقرارة الوجدان،ولتأكيد الصورة كانت(إنما) هي المعبر؛ ذلك أن المخاطب يوقن بانتهاء الزمن وورود الحساب لكنه لما غفل عن الاستعداد للحظة الحسم هذه ؛ كانت(إنما) ذريعة لاستحضار الهمة في محاسبة النفس قبل وقوع الحساب لها،بأسلوب لين ناعم يناسب الدعوة الفكرية التأملية المطروحة، مستخدماً القصر لغرض التعريض بشدة الغفلة عما ينتظرها من مصير.

والإشارة إلى الغفلة عما ورد في قوله تعالى:

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ](٣).

---

١) وبيّ : الوبى : الردى يجلب الوباء. والدويّ : الوبيل يفسد الصحة ، أصله من الدوا بالقصر أي المرض. والمدى : جمع مدية : السكين،أي معلوفة للذبح.

٢) نهج البلاغة :٢/ ٣٠٨.

٣) سورة العنكبوت آية (٦٤).

"والحيوان هو الحي ذو الجنس،وقد قال بعضهم يعني البقاء يريد أنها باقية ([1])".

والحيوان مصدر حي فجعل الآخرة الحياة نفسها ،ولا تنقطع منها ،والذي يختص به هذا البناء هو إفادة ما لا يخلو من الحركة([2]).وليس هناك كلمة تصف المعنى بأوجز وأدق من وصف الحياة،وهي كذلك تتمم صورة المقابلة بين الموت في الدنيا وبين الحياة في الآخرة؛لأنها الحياة التي لا يعرضها الموت.كما أنها بمدلولها تؤكد القصر في الآية من باب قصر القلب،فقصر دنياهم على لهو الصبيان ولعبهم في قلة غنائه وسرعة زواله([3]).

ولعل الإمام قصد الاستئناس إلى هذا المعنى والإشارة إليه،من قصور التأمل من المخاطبين في مضمون هذه الآية،فانتجت(إنما) في مقول الإمام عليّ فائدة التنبيه وفائدة التعريض،ولم يعتد فيها بأي صفة للأنعام _المشبه بها الإنسان_ سوى أنها معلوفة لا تنظر للعواقب ولا تعد لما بعد يومها،ومتى شبعت ظنت أنه لا شأن لها بعد هذا الشبع،وفي هذا ألوان من التناسق الظاهر والمضمر ومن لطف الكناية عن ملابسات دقيقة،أدق ما فيها هو ذلك التشابه بين الغافل والحيوان المأخوذ للذبح.والقصر بـ(إنما)قصر إضافي قصر موصوف على صفة قصر قلب، لتصحيح اعتقاد علمهم بالحياة الدنيا،فكان القصر لتأكيد عدم علمهم بالحقيقة،مما يكشف لهم أن العيش الأفضل المفعم بالحياة والحركة في زمنه هو عيش الآخرة.

** ومن أوصافه للدنيا التي استعمل فيها الإمام عليّ (إنما) في الأمر الجلي قوله إلى سلمان الفارسي– رحمه الله– قبل خلافته :

(فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا، قَاتِلٌ سَمُّهَا، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا،وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا لِمَا أَيْقَنْتَ مِنْ فِرَاقِهَا...)([4]).

---

[1]) الفروق في اللغة للعسكري: ٩٦ دار الآفاق الجديدة ت/لجنة إحياء التراث العربي بيروت ط خامسة ١٩٨٣م.

[2]) الكشاف للزمخشري :٤٦٨/٣– ت/ عبد الرازق المهدي– دار إحياء التراث العربي – بيروت –بدون.

[3]) أسلوب القصر في محكم النظم : ٦٦.

[4]) نهج البلاغة : ٣/ ٥٢٧.

أجدني أقف متأملة لهذا التعبير الذي لا يوجد أبلغ منه في وصف حال الدنيا وخداعها،وقد ارتبطت فيه الصورة الفنية باستعمال(إنما)،وأمر خداع الدنيا معلوم لا يجهله المخاطب(وهو صحابي جليل)ولكن الإمام أراد أن ينفذ من وراء هذا المعنى إلى معنى آخر،وهو تنبيه المخاطب إلى تبدل أحوالها لاستدعاء وجوب الحذر منها بشكل أوسع وأكبر مما هو موجود بالفعل،يزيد من حلقة الخوف والتذكير، ويلتقط صورة محسوسة لمعنى ذهني لتفصيل موقف ولتوضيح جزئيات الواقع.

وهو تنويع في الحوار من جهة التعبير بعد الأوصاف السابقة للدنيا،وقد ناسب استعمال(إنما) هنا لخطابها اللين الهادئ،وللتعريض فيها بمن أمن للدنيا والمخدوع بمظهرها،تبرز فيه قيمة الفزع في موطن الأمان والاطمئنان،وقد كانت أنسب في المقام من التصريح،لاعتماده على فطنة المتلقي ووعيه، ولو استبدلت(إنما) في التعبير بالنفي والاستثناء لزالت خصوصية مقصودة لذاتها، ولتحول الخطاب من مؤشر الهدوء إلى مؤشر العنف، والقصر هنا إضافي قصر قلب لمن اعتقد فيها الأمن والأمان بقصر موصوف (الدنيا) على صفة (الخداع والتلون).

زاد من إيقاع الكلام في العبارة الجناس المقلوب بين (مسها و سمها) ليحدث التموج الموسيقي وظيفة أساسية في مصاحبة المشهد المعروض.كما أن اختيار الإمام للمس دون اللمس كان من دقة الوصف؛ مع اشتراكهما في أصل الدلالة،وتفرد المس بخفة الملاقاة بين الماس والممسوس([1]).

وقد وردت الصورة في الشعر عند أمير الشعراء أحمد شوقي([2]) لكن بدون قصر:

أخَا الدُّنْيَا أرَى دُنْيَاكَ أَفْعَى ** تُبَدِّلُ كُلَّ أَوْنَةٍ إِهَابَا([3])

***وها هو يتابع وصف حال البشر في الدنيا ويؤكد سرعة انقضاء الحياة بقوله :

---

[1]) ينظر :دراسات جديدة في إعجاز القرآن :٩٢/د عبد العظيم المطعني مكتبة وهبة ط أولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

[2]) ينظر : بحث للباحثة في مجلة اللغة العربية جامعة الأزهر ص١٠٨٩ العدد الثلاثون الجزء الثاني ٢٠١١م.

[3]) الشوقيات: ١/ ١٠٢ تعليق د/ يحي شامي دار الفكر العربي بيروت ط أولى ١٩٩٦م. والإهاب: الجلد.

(فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالْمَسِيرِ)([1]).

ينبه الإمام عليّ المخاطبين إلى فناء الدنيا،وأنها معبر لزاد الآخرة التي خلقوا لها،وأنهم في حال انتظار لها،وحتى يبين الحال بصورة أوضح لجأ للتشبيه المصاغ في أسلوب القصر بـ(إنما)، ليرى المخاطب صورته هذه ويستحضر صورته الأخرى ،التي يستقر فيها ويقيم، وتطوى صورة المسافر وهي لحظة تتوقف عندها النفس لتتهيأ للتوجيهات المناسبة للمقام.

ولما كان المخاطبون لا يجهلون الخبر وإنما غفلوا عنه؛أراد استدعاء انتباههم ليجعله ذريعة للتفكر والتدبر،وما يستتبع ذلك من إذعان وقبول للنصح، فكانت(إنما)هنا هي المستوجبة لذلك بأدق وأقصر تعبير، للتذكير بالمعلوم بأسلوب هادئ لين لطيف دون جلبة أو ثورة.هكذا(إنما) قصرت موصوفاً على صفة قصرًا إضافياً قصر قلب،ويخاطب به من يعتقد عكس الحكم الذي أثبته المتكلم للتأكيد مبينة أن الناس مقصورون على انتظار الموت،على سبيل المبالغة لتوجيه النفي فيه إلى سائر الصفات الأخرى غير الصفة المذكورة.

والقصر هنا بـ(إنما) أبلغ من النفي والاستثناء لما فيه من التعريض بالغفلة والنسيان،ولو زالت(إنما) من التعبير لفقدت خاصيتها في التعريض، ولانتقل الخطاب من جانب اللين والرفق إلى جانب الشدة والفظاظة ،ولصار المعنى من الأمور التي ينكرها ويجحدها المخاطبون ،وهذا ما ينفيه واقع (إنما) الدلالي والسياقي بل والواقع الفعلي للناس؛ بالنظر للقيد في التشبيه من قوله(وقوف) وما توحي إليه من استعداد وتهيئة نفسية، فضلاً عن السرعة الزمنية،كما كانت الجملة الأخيرة كناية عن الموت وانقضاء الأجل، وما توحي إليه من الاستسلام و الانقياد التام.

*** ويصل المدى ببلاغته في وصف الدنيا وتكتمل الصورة السابقة بقوله :

(عِبَادَ اللهِ أُوصِيكُمْ بِالزُّهْدِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا،فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ ، وَأَمُّوا([1])عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ)([2]).

---

[1]) نهج البلاغة : ٢/ ٢٧٩.

أي إنكم في مسافة العمر كالمسافرين في مسافة الطريق ، فلا يلبثون أن يأتوا على نهايتها لأنها محدودة.والصورة المعروضة هنا لقصر الدنيا، تمسك بطرفيها وتجمعهما في ومضة خاطفة فالمسافر يأتي من المجهول ليذهب إلى المجهول،لتطوى الرحلة كأنها ما عرضت قط، فما يكاد الخيال يتلفت ليراها حتى يفتقدها فلا يلقاها،والصورة اقتضت التنويع ليتم التناسق مع أجزاء المشهد،من قصد السفر وقصد العَلَم،والتعبير لا ينتهي إلى أداء المعنى مجرداً،إنما ينبض بطبيعته بصورة حية للمعاني، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة حسب اختلاف الأجزاء.

وانتهى شريط الحياة كله في هاتين الجملتين القصيرتين، وسرعة انقضاء الدنيا أو الأجل أمر لدى المخاطب معلوم ، لكنه لغفلته وطول أمله أراد المتكلم (الإمام عليّ)أن ينبهه ويذكره بالأمر المعلوم ليجعله ذريعة إلى ما يستوجبه التذكير بمحدودية الدنيا،وما يعقبها من حساب على المواقف والاتجاهات والعقائد،وما يعنيه ذلك من تعريض بكونه على الحق الواجب مناصرته ،ومن وجوب التصدي للباطل بمحاربته.

وكانت (إنما)هنا في العبارة لحصر الجانب الأهم في الحياة البشرية، وتنبيهاً على أنه من الأمور التي لا يجب أن تغيب عن الإنسان،وللإشعار بهذا المدى القصير عرضها في صورة حسية لتلمس أعماق الفكر، وكان يمكن أن يكتفي بالتشبيه التمثيلي في العرض ولكنه وقف على بلاغة(إنما) في التعبير ليقف على حلقة ما كانت لتعرض بدونها،ألا وهي التعريض بأمر هو مقتضى ما ذكر؛ألا وهو وجوب سمو الهدف،وعلو الغرض والمكانة،ولعل هذا هو فضل الأسلوب،وسر جماله وتمكنه؛ لأن إدراك مرماه يحتاج إلى قدر من الفطنة والوعي بالسياق.والقصر هنا قصر إضافي ، قصر قلب، من قصر الموصوف على الصفة،وإنما هنا أبلغ في الوصف من جهتين: الأولى : الهدوء في الحوار وما يستدعيه من تعقل فكري تأملي،الثانية : التعريض .

---

[1] أموا: قصدوا، يقال:أممته بالعصا قصدته(المعجم الوسيط :١/٢٧المكتبة الإسلامية تركيا بدون). والعلم الجبل.

[2] نهج البلاغة : ١/ ١٩٩.

ولكي ندرك قيمة التعبير سنقف على المعنى نفسه في قول قطري بن الفجاءة([1]):

"أما بعد فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات ،وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وحليت بالآمال...لا خير في شيء من زادها إلا التقوى... كم واثق بها قد فجعته،وذي حلم تنبه إليها وقد صرعته" ([2]).

فيظهر فيها ميل الكاتب إلى الازدواج ،والإطناب في الشرح، فضلاً عن استعمال القصر بالنفي والاستثناء وهو يقتضي أن يكون المخاطبون منكرين يجهلون الأمر،أو نزلوا منزلة الجاهلين له، وما يستتبعه ذلك من احتمال نفور السامعين الفاهمين فحوى الخطاب، بل يتميز التشبيه الرائع الذي ارتبط بـ(إنما) في تعبير الإمام عليّ -كرم الله وجهه- واستعماله (كأن) الدالة على قوة الشبه حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به([3]). ولعل السبب في ذلك أنها تأتي عند الظن والشك، مما يؤكد معنى الوهم والظن في الوصول. وإن كانت الاستعارة قد وردت في خطبة قطري في :(صرعته)لكن اختلاف الأثر النفسي يتضح في ناحية التعبير الأول.

بل أول ما يلفت النظر بداية الخطاب عند الإمام عليّ بالنداء بعبارة عباد الله وما يستجلبه ذلك من التشريف وما يستدعيه من استمالة القبول والاستجابة، بعكس الأسلوب الوارد في خطبة قطري،فقد بدأ بأسلوب التأكيد في قوله (فإني) مشعرًا بالثقة الزائدة في نفسه وبالتردد في القبول من قبل المخاطبين. كما أن استعمال اسم الإشارة في قوله(هذه الدنيا) فيه

---

[1]) قطري بن الفجاءة : جعونة بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي،أبونعامة شاعر الخوارج،وفارسها وخطيبها كان من رؤساء الأزارقة وأبطالهم،من أهل قطر بقرب البحرين، بقي ثلاث عشرة سنة يقاتل والحجاج يسير إليه جيشًا إثر جيش ، وهو يردهم ويظهر عليهم، قدم المدينة في عهد عمر بن الخطاب مما أتاح له مقابلة عدد من كبار الصحابة،وبأخذ عنهم.(تراجم أعلام بني تميم:www.bnitamem.com).

٣٧) صبح الأعشى : للقلقشندي :١/٢٦٨- دار الفكر دمشق ط أولى ١٩٨٧م.

٣٨)شروح التلخيص :٣/٣٩٤.

٣٩) زهر الآداب وثمر الألباب : ٢/٢٤٤ الحصري المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٥م.

استحضار الدنيا بعينها في ذهن السامع وجعلها محسوساً عينياً مشاهداً، فضلا عما فيه من تحقير شأن الدنيا بالقرب .

وفي نفس المعنى يقول ابن العميد في رسالة كتبها إلى بعض إخوانه " أنا أشكو إليك دهراً خؤوفاً غدوراً ،وزماناً خدوعاً غروراً، لا يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا ريث ما يرتجع، يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جرعاً ثم يمتنع"(١).

وابن العميد هنا استعمل النفي والاستثناء مرتين بتتريل الأمر المعلوم فيهما مترلة غيره لعدم جريان المخاطب بموجب علمه فيهما؛ألا وهو الحذر من الدنيا وأحوالها،فكان النفي والاستثناء أسلوباً شديد اللهجة مدوياً يصارع الأذن حتى يصل إلى الفهم،مما يوحي بالإنكار والشك بعكس ما كان في خطاب الإمام عليّ، فتجافى التعبيران من حيث الرقة والشدة، كما يظهر أسلوب الطباق والإطناب في كلام ابن العميد، وصيغ المبالغة مع شيء من الاستعارة في المنح والهبة والانتزاع والارتجاع،والتشبيه في (يبدو خيره لمعاً)، والكناية اللطيفة في(يحلو ماؤه)والسجع في (ينتزع)و(يرتجع) و(ينقطع) و(يمتنع)،ومردود تلك الموسيقى على الأسماع ،ولكن أين ذلك مما ورد في قول الإمام عليّ في الإيجاز والتأكيد والتشبيه؟.

كما نقف هنا على قوة بلاغة الإمام عليّ حين نقف على وصف للدنيا من أقوال عمر بن الخطاب– رضي الله عنه وأرضاه– فمن خطبه في ذم الدنيا:" إنما الدنيا أمل مُخْتَرَم، وأجل مُنْتَقِض وبلاغ إلى دارٍ غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ..."

تطابقت الفكرة هنا في التعبير عن فناء الدنيا،كما اتفق الاثنان على استعمال القصر بـ(إنما)،والتي قصد منها تنبيه المخاطب على غفلته، لكن التعبير في الصورة قد افترق؛فما أقصر تعبير الإمام عليّ عنها بالسفر والمسافرين وما أقصر الأمل والهدف حين شبهه بالعلم المقصود بلوغه،وما أجمل الطباق بين المبلية للأجساد والمجددة للأيام،وبين التاركة لهم وغير المحبين لتركها، لكن يلتقي أمير المؤمنين–عمر بن الخطاب–مع الإمام عليّ في الصورة الفنية في قوله(أجل منتقض) فصورة الهدم تلك تناسب حال الدنيا،فيجعل هذا العمل المعنوي مادة

محسوسة على وجه التشخيص بالنقض وما يعنيه من تداعي شيء تلو الآخر،صورت ضياع الأيام من العمر أبلغ تصوير.

*** ومن أسلوب القصر بـ(إنما) قول الإمام عليّ :(وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا تَقْبِضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ،وَتَقْبِضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ) ([1]).

والمعنى:أن الممسك خيره عن عشيرته إنما يمسك نفع يد واحدة ، فإذا احتاج إلى نصرتهم واضطر إلى طلب معاونتهم ؛ قعدوا عن نصره فمنع ترافد وتعاون الأيد الكثيرة.يتناول الإمام جزئية دقيقة في حياة الفرد البشري ، إنها تواصل الأرحام،ولننظر من أي الجوانب كان عرضها؛عرضت من الجانب المادي الذي تتفهمه نفس الخاطبين،إنه جانب المنفعة المتبادلة الذي تقاس به الأشياء غالباً،وكان القصر بـ(إنما) أحد دقائق المعنى، فهذا أمر لا يجهله المخاطبون ولكنهم لما أهملوه أراد أن ينبههم إليه،لأنه مما يجب التنبيه عليه،كما أنه أراد أن يذكرهم بالأمر المعلوم ليجعله ذريعة إلى استدعاء ما يستوجبه من المناصرة و الملاحمة عند الشدائد؛ للتعريض بوجوب مناصرتهم له في خلافه القائم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، وما يستتبع ذلك أيضا من الانتفاع بالتبادل.

وهذه دقة تأخذها عين المتأمل للحدث؛لأنه ركز على المحصلة المستفادة من التواصل، فغير خافٍ أهمية صلة الرحم من الناحية الدينية،لكن لما كان هذا الجانب لا يتوجه إليه الجميع،حصر الجانب الأهم بـ(إنما) على سبيل القصر الإضافي، فالتخصيص نسبي بالإضافة لمعتقدهم ، قصر إفراد، فجملة القصر تدل على أنه لا فائدة من التواصل إلا التناصر والتبادل فيه،وليس قصر قلب لأنهم لا يعتقدون العكس،لأن الجو للسرد والبيان أكثر مما هو للهول والتحذير،وهذه صورة فيها المد والجذب،وهي حقيقة تحقق السرعة المطلوبة للاستجابة المقصودة.

ولذلك لو سقط القصر بـ(إنما) هنا،وقيل: من تقبض يده عن عشيرته تقبض منه عنهم يد واحدة...،فهل يمتد الخيال في استعراض التعريض بوجوب الوقوف لمساندته

---

[1]) نهج البلاغة : ٩٤/١.

ومعاضدته؟ وهل يصل بنا المعنى إلى حصره في فائدة واحدة وهل يكون أعلق ما ترى بالنفس؟ هنا تأتي الإجابة سريعة بالطبع : لا. سيزول بزوالها أجلُّ ما في المعنى؛ وهو ما افترضه الإمام عليٌّ من انقطاع المناصرة المتبادلة بين الطرفين على سبيل التأكيد،ولما استطاع من استدعاء مراده الشخصي وأيضاً سيزول حصر معنى المقابلة بين الصورتين وما تؤدي إليه من تباين الحال بين يد واحدة.وأيدٍ كثيرة.

بل أكد معنى الإمام عليّ سياق تنكير اليد الواحدة المفيد للتقليل،وجمع الأيادي ووصفها بالكثرة، والمزاوجة البديعة في ترتب قبض يد وقبض أياد على قطع صلة العشيرة.ومما يؤكد مزية القصر بـ(إنما)هنا أنه لو فرضنا أنه قصر بالنفي والاستثناء فقال: ما تقبض عنهم إلا يد واحدة، لزالت مزية(إنما) من الكلام هنا في التعريض بمعنى يتولد من مزاوجة ما دخلت عليه،ألا وهو عدم الذكاء الاجتماعي،وعدم حسن تقدير العواقب.فضلاً عن زوال الإيجاز لأنه سيضطر إلى إعادة النفي والاستثناء مرة أخرى في الجملة الثانية فيقول : (وما تقبض منهم عنه إلا أيد كثيرة)،والنفي والاستثناء يستعمل في مقام الإنكار والجدل أو في ما يكون خفياً أو غيباً مكنوناً، والمقام هنا ليس أحداً من ذلك، فاقتضى المقام هنا (إنما) دلالة على وضوح الأمر في ذاته،وأنه حتى وإن عرض له خفاء فهو خفاء طارئ يزول بالتنبيه وباستدعاء التأمل والفكر.

ومما يؤكد بلاغة التعبير هنا بـ(إنما) واستدعاء المعنى لها أن نقف على المعنى نفسه،ولكن بدون قصر في قول الأحنف بن قيس([1]):

---

[1]) الأحنف بن قيس :بن معاوية بن حصين التميمي السعدي ،أبو بحر البصري،وقيل صخر بن أبي صعصعة، لقب بالأحنف لحنف رجليه وهو العوج والميل،كان سيد تميم أسلم في حياة النبي ووفد على عمر،عده أصحاب السير من الطبقة الثانية من كبار التابعين ،وكان موته بالبصرة في ولاية مصعب بن الزبير سنة سبع وستين (www.islamstory.com).وصفه الجاحظ بأنه أبين العرب والعجم قاطبة(البيان والتبيين : ٦٠/١ للجاحظ دار صعب بيروت ط أولى ١٩٦٨م).

"ما أقبح القطيعة بعد الصلة،والجفاء بعد اللطف،والعداوة بعد الود،لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان،ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل"([1]). وقوله في موضع آخر" أطع أخاك وإن عصاك ،وصله وإن جفاك ".

فمع اتفاق المعنيين على مبدأ صلة الأرحام لكن اختلاف الأسلوب يظل هو المعول عليه في تحقيق المراد،فلم يرق تعبير الأحنف إلى مستوى بلاغة الإمام عليّ، وما فيه من الكناية اللطيفة عن البخل أو عدم المعاونة(قبض اليد)،إذ ليس في قول الأحنف إلا التضاد اللفظي(القطيعة والصلة- الجفاء واللطف- العداوة والود- الإساءة والإحسان...) وصيغة التعجب الصريحة والتفضيل،لتأكيد عدم القدرة على الموازنة الفعلية بين الأمور، فضلاً عن المباشرة في النصيحة،وما يستتبع ذلك من إمكانية العناد والرفض،كذلك استعماله(إن) الشرطية الدالة على الشك والقلة، فقد دلت على ندرة الفعل وبالتالي ردة الفعل.

وإلى مثل هذا يشير زهير بن أبي سلمى :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِه *** عَلَى قَوْمِه يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ ([2])

***ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الجلي في أقوال الإمام عليّ :

(وَإِنَّمَا سُمِّيتْ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لَأَنَّهَا تُشْبِهُ الحَقَّ)([3]).

فليس الغرض من القصر بـ(إنما) هنا أن يعلم السامعون ظاهر معناه،وهو أن الشبهة تتشابه في ظاهرها بالحق،وأن غيرها لا يسمى شبهة ليس هذا المعنى مقصوداً؛لأنه معنى بدهي معلوم،ولكنه لما تجاهله بعضهم وتناسوه عند اختلاط الأمور وتشابهها عليهم احتاجوا إلى التنبيه إليه، وكان القصر بـ(إنما) لتنبيه المتلقي إلى استدعاء الفطنة في التمييز بين الأمور المتشابهة، وما يستوجبه ذلك من التزام وانتهاج طريق الحق ، وتجنب وثبات الخيال وخواطر الهوى ، تنبيهاً على أنه من الأمور التي ما كان ينبغي أن تغيب أو ينكرها أحد، وهو قصر

---

[1]) الأمالي : أبو علي القالي: ٢/٢٢. ط بولاق سنة ١٣٢٤هـ.

[2]) شرح المعلقات :١٣١أبو عبد الله الحسين الزوزني ت/ طه عبد الرؤف سعد دار الحرم للتراث ط أولى ٢٠٠٦م.

[3]) نهج البلاغة : ١/ ١١٦.

حقيقي([1])، قصر موصوف على صفة،فاستعمل من أساليب القصر ما من شأنه أن يدل على قرب الخبر ووضوحه، ليكون أدعى للأخذ به،وآكد في البيان.كل هذا والخطاب بأسلوب أوحت فيه (إنما)بالهدوء وما يتبع ذلك من خطاب عقلي وترو فكري.

وإذا أردنا أن نقف على أهمية التعبير بـ(إنما) هنا فلنفترض خلو الكلام منها؛ حيث نقول: سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق ، فهل يبقى الأثر النفسي كما كان في التعبير الوارد بـ(إنما)؟ من التأكيد أولاً ، وتجاهل أي سبب وأي وصف آخر للتسمية ، ومن التنبيه على أمر معلوم قد تغافلته

العقول؟وهل يلتمس من التعبير الأول الحاجة إلى التذكير بالمعلوم؟ وهل يكون حسم القضية كما تم من جهة التعبير بـ(إنما) ؟! وهل تظهر الشبهة وكأنها باتت من الشهرة بحيث لا تخفى؟.

ومما قيل في المعنى نفسه ما ورد في قول الصابئ :

" فإن الشيطان لا يزال يكسو الخدع والشبهات سرابيل الحجج و البينات، ليستضل بها الأحلام ويستزل الأقدام"([2]). يكثر في التعبير هنا الصور البيانية من الاستعارات في (يكسو- السرابيل) والمجاز المرسل في الأحلام وفي الأقدام، كما أن الصابئ قد نصح بما لم يستنصح هو نفسه به، وفاقد الشيء لا يعطيه فاستدعي بالتالي احتمالية الإنكار النفسي والرفض من

---

[1]) القصر الحقيقي : ما كان التخصيص فيه بحسب الحقيقة والواقع،وهو قسمان : حقيقي تحقيقي وهو ما كان التخصيص فيه بالنسبة للحقيقة بحيث لا يتجاوز المقصور المقصور عليه أصلاً، وحقيقي ادعائي بحسب الادعاء والمبالغة بفرض أن ما عدا المقصور عليه في حكم المعدوم.(الإيضاح :١١٨/١ جلال الدين القزويني ط رابعة دار إحياء العلوم- بيروت- ١٩٩٨م).

[2]) رسائل الصابئ : ١٩٧(الصابئ: أبو إسحاق إبراهيم ،لما أدرك سن العلم صرفه والده-وكان طبيباً- إلى درس الكتب الطبية،ولكن الفتى مال للأدب،واتصل بالوزير المهلبي،وهناك ظهرت براعته ،وعهد إليه بديوان الإنشاء عام ٣٤٩ه وهو في السادسة و الثلاثين من عمره، واشتهر عنه حسن تأدبه،ظهر في عصر ابن العميد والصاحب بن عباد وهما من هما في الكتابة والوجاهة،توفي ٣٨٤ه.(معجم الأدباء:٣٢٤/١ياقوت الحموي ت/مرغوليوث مطبعة هندية ط ثانية.

المخاطب.كما خلا التعبير من القصر ومراميه، فمالت الكفة عند الموازنة نحو تعبير الإمام لأن المعنى المراد استدعى حقيقة اللفظ ،لا مجازه ؛ لما فيه من التعليل والعرض المنطقي.

وفي مثل ذلك يقول الغزالي " إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور،فلابد من طلب حقيقة العلم ما هي: فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب،ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم..."([1]). فقد قصر الغزالي المطلوب في العلم على الحقائق بـ(إنما) مستعملاً إياها في إيصال مقصوده،وقد خالف الإمام في الغرض المساقة له(إنما)؛لاستعماله إياها في الأمر الخفي بتنزيل المجهول منزلة المعلوم دلالة على وضوحه في ذاته وضوحاً لا يكون معه إنكار،وتعريضاً بمن اعتقد فيه غير ذلك، لكنه استفاد من أدائها الخطابي لقصر إفراد علمه على الحقائق.

** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الجلي من أقوال الإمام عليّ :

(إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ)([2]).

يعرض الإمام عليٌّ الحال والوقائع،ويشخص الموقف وينسق العرض ليلمس الحس الديني،ويوقظ الحمية الإسلامية، حتى يتسرب الاقتناع إلى أعماق النفس و قرارة الوجدان المؤمن، ويذكر في العرض خطوات وتفاصيل تساعد في إكمال المعنى ، مبتدأً بأسلوب القصر بـ(إنما) قصر صفة على موصوف،وهو أبلغ هنا في التقرير من جهتين:الأولى:لما يفيده استقلال المذكورين ببداية الفتن وعدم اشتراك أحد معهم فيه،والثانية : أنه لا ينفي أن يكون للفتن صفات أخرى غير هذه الصفة.

و القصر حقيقي حيث قصر بداية الفتن على اتباع الأهواء،وابتداع لأحكام،ومخالفة القرآن، وهذه أمور معلومة لدى المخاطبين لا ينكرونها، ولا يشكون في مضمونها، ولا يمارون في صحتها،ولكنه أراد النفوذ من وراء هذا إلى معنى آخر هو مقتضى الكلام؛ألا وهو تحديد الاتجاه حسب البوصلة الدينية الواردة في كتاب الله والتعريض بوجوب عدم الخروج عن

---

[1]) المنقذ من الضلال : ٦١٠ /أبو حامد الغزالي – دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت ط سابعة ١٩٦٧م.

[2]) نهج البلاغة : ١٢٤/١.

حدودها ومساراتها، والتعريض بخصمه(معاوية) وأنه إنما هو مبتدع مفتتن مخالف للدين ، وهذا يفيد التنفير والتحذير من تصديقه ورفض اتباعه لخروجه عن الحق الذي جاء من الله تعالى ، ويفيد التعريض بمن لم يناقش هذا الأمر مناقشة معقولة ، وفيه طلب لثبات أعوانه على الحق الذي بين أيديهم .

وكانت(إنما) مع التعريض بها هنا أبلغ من النفي والاستثناء؛لعدم دلالته على التعريض كما هو الحال مع(إنما)، كما أنه لا يدل على الحكمين (النفي والإثبات) إلا بالجملتين،أما (إنما) فيعقل منها الحكمان معاً دفعة واحدة، ومن حال واحدة، كما أن القصر بالنفي والاستثناء يكون فيما يجهله المخاطب وينكره ويصر على إنكاره، والمخاطبون هنا في كلام الإمام عليّ لا ينكرون الخبر، فطلب المقام ورود(إنما) دون النفي والاستثناء.

**ومن قصر الأمر الجلي بـ(إنما) قول الإمام عليّ- رضي الله عنه وأرضاه- :

(وَانْهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي) ([1]).

ينظم التعبير حركة الحياة الدينية المجتمعية ، فيبين للمخاطبين دور التأثير والتأثر في سرعة الذهن التجريدية للمنظور التبادلي، وحتى يتفق العرض مع الغرض كانت(إنما) وسيلة مؤدية للمعنى المراد،وكان القصر الإضافي قصر موصوف- وهم المخاطبون- على صفة وهي نهي النفس أولاً ثم نهي الآخر تالياً قصر قلب؛لأن المخاطبين يعتقدون أن الأمر بالنهي أسبق في الطرح من الأمر بالتناهي .

إن المخاطبين حين أقبلوا على النهي عن المنكر كانوا يعتقدون في ذلك استجابة لأوامر الدين، به يحققون الأمر القرآني،فجاء القصر لقلب اعتقادهم بوجوب تهذيب النفس بالتناهي حتى تصير قدوة مقبولة تتأتى الاستجابة منها متى نهت عن المنكر، وأراد أن يذكر المخاطبين بالأمر المعلوم ليبني عليه استدعاء ما يوجبه التناهي قبل النهي،من عدم الانقياد للأهواء،وعدم التهور في أخذ القرارات، فالبصير يطلع على حقائق العقائد ومكارم الأخلاق

---

[1]) نهج البلاغة : ٢٠٩/١.

قبل الدعوة إليها،وعلى نية التبليغ به فعليه بأخذ تفاصيله وجزئياته ؛وما يكون ذلك إلا بأخذ العلم بالشيء من منابعه(القرآن والسنة).

فأتى الحصر بـ(إنما)هنا لخصوصية في الأداء، لما فيها من تعريض بالركون إلى الجهالة والانقياد للهوى المؤديان إلى الضلالة ،وهذا أسلوب مؤدب ومؤثر معاً،أما كونه مؤدباً فمن حيث إنه يؤدي الغرض المراد تلويحاً دون ذكر للطرف المقابل، وأما كونه مؤثراً ؛ فلأن ترك التصريح بالطرف المقابل لما أثبت فيه إيماء بأنه واضح بيِّن ، فلا تصح المقارنة إذاً بين المثبت والمنفي.

*** ومن قصر الأمر الجلي بـ(إنما) قول الإمام عليّ في وصف طبيعة المجتمع المؤمن :

(وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِيْنِ اللهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خَبَثُ السَّرَائِرِ وَسُوْءُ الضَمَائِرِ)([1]).

يخاطب الدافعية الإيمانية للعقول،ويناشد الفكر التوحيدي في روح الدين،وهذا الأمر في قول الإمام عليّ معلوم واضح،لا ينكره المخاطب ولا يشك في مضمونه،ولكن القصر بـ(إنما) هنا ينفذ من وراء هذا إلى معنى آخر،هو أنه يريد تنبيه المخاطب بأنه من حق الأخوة الرقة والاستمالة والاتفاق على رأي واحد،ليبني عليه استدعاء ما توجبه الأخوة من التوحد،ونسبة هذه الصفات للمخاطبين قريبة واضحة والكلام على الترغيب في المصالحة وتذكير بما يجب أن يكون عليه حالهم،حيث لم يعتد بغير ذلك وكأنه غير موجود.

وفي ذلك تعريض بوجوب الاتحاد على قلب رجل واحد،لأن المفارقة والاقتتال لا تقع بين من اكتمل إيمانهم وحسن يقينهم، حتى يهم المتلقي بالإثابة والإنابة.وهذا يفسره ويوضحه قول الإمام عليّ بعد واقعة التحكيم :(لبئس حشاش نار الحرب أنتم، أف لكم لقد لقيت منكم برحاً([2])، يوماً أناديكم ويوماً أناجيكم، فلا أحرار عند النداء، ولا إخوان ثقة

---

[1]) نهج البلاغة : ١/ ٢٢٤.

[2]) الحشاش: جمع حاش من حش النار أي أوقدها،(لسان العرب:ابن منظور المصري:١/٥٥ مادة حشأ – دار صادر بيروت). أي لبئس الموقدون للحرب.

البرح بالفتح : الشر أو الشدة. والنجاء : الإفضاء بالسر والتكلم مع شخص بحيث لا يسمع الآخر.

٥٢) نهج البلاغة :٢/٢٤٢.

عند النجاء)([1]).والقصر حقيقي قصر موصوف على صفة،وهو قصر يشير ويتطابق مع ملابسات الحياة الاجتماعية في قوله تعالى :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.([2])

ولقد اجتمعت للتعبير عند الإمام عليّ عناصر الصدق والدقة والجمال حين قيد القصر بقوله(على دين الله) فلم ينقص شيئاً لتحقيق الغرض الديني،إذ يتفق مع طريقة العرض هنا جمال التعبير البياني(الاستعارة التبعية في الحرف) حيث لم يقل (في دين الله) بل قال :على دين الله ،فجعل الدين يرقى ويرتفع بهم عن كل الأحقاد والضغائن إلى مرتقيات أسمى؛ ولهذا يواصل الإمام عليّ القصر لكن يخالف في الأسلوب، مما يؤكد بلاغة (إنما) في موقعها، فيأتي القصر بالنفي والاستثناء في قوله(ما فرق بينكم إلا خبث السرائر وسوء الضمائر)وهذه المخالفة في الأسلوب لغرض بلاغي؛ تفيد التضاد الخفي بين المعنيين؛القصر الأول بـ(إنما)،والقصر الثاني بالنفي والاستثناء ؛ لأن النفي والاستثناء يكون فيما يجهله المخاطب وينكره ،وفي الخبر الذي من شأنه ألا يزول إلا بالتأكيد أو ما يترل مترلة ذلك.

فالصياغة هنا تبرز أن خبث السرائر وسوء الضغائن أمر نزل عند المخاطبين مترلة المجهول لتصوير المقام الملائم مع السياق صياغة وزماناً وحالاً، فكان الأسلوب للحسم القوي للقضية بما يحتاج للتقرير،وإبراز تلك الحقيقة المستوطنة داخل القلوب والنفوس،دلالة على قوة شعور الإمام عليّ بالمعنى وعمق الإحساس به، وهو قصر صفة على موصوف(الفرقة على الخبث والسوء)،وهو أبلغ في القصر؛ لما فيه من دلالة على استقلال الخبث وسوء الضمائر بالتفرقة ،وعدم إشراك غيرهما فيه،وأيضاً لما فيه من عدم نفي أن يكون للخبث وسوء الضمائر صفات أخرى وعمل آخر غير التفرقة،وهو من القصر الإضافي قصر القلب لتصحيح الاعتقاد ولذلك صير المعلوم مترلة المشكوك فيه، حتى تتكشف الملامح والسمات للعقل.

---

٥٣) سورة الحجرات آية (١٠).

**ومن أساليب قصر الأمر الجلي بـ(إنما) في أقول الإمام عليّ :

(إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا القُرْآنَ،وَهَذَا القُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُوْرٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ)([1]).

يذكر الإمام عليٌّ المخاطبين بوصف دقيق لأسباب التحكيم،ويثبت مزية تحكيم القرآن،وأثره في المسلمين، وأنه لن ينطق بالحكم الكائن فيه إلا ألسنة الرجال؛ المستحقون صفة الرجال،لاحتياج القرآن إلى ترجمان،ثم يؤكد أنه بجانب القرآن عوامل يتأثر بها المسلمون، كل على طريقته وكل وما ركب في طبيعته،وحتى يسترعي إحساس المتلقين للكلام ويستحوذ على انتباههم نجده يستعمل(إنما) ثلاث مرات في النص، وما ذلك إلا لخصوصيتها في الأداء.

المخاطبون يعلمون بتحكيم القرآن ويعلمون كونه مستوراً بين دفتي المصحف،كما يعلمون أن الناطق بالحكم هم المستقرئون للأحكام؛ولكنه ينفذ من وراء تذكيرهم بهذا المعلوم إلى معنى آخر، ليبني عليه استدعاء ما يوجبه ذلك من التعريض بالمحكمين، وأنه يتاه بهم، وأنهم حيارى عن الحق لا يبصرونه،وأن هذه مرحلة قبل سطوع الحق، تجمع بين النور والظلمة،ولها جوها الغامض،تحتاج إلى صاحب حاسة دقيقة يبصر خفايا الأمور،ويكتشف الغموض المرهوب،وهذا تعريض واضح الظهور بمن قام بالتحكيم،وفي قوله (وإنما حكمنا القرآن) قصر إضافي قصر صفة على موصوف، وترجع بلاغته إلى ما يفيده من استقلال القرآن بالتحكيم،وعدم إشراك أحد معه،كما يفيد عدم نفي صفات أخرى للقرآن غير التحكيم،من كونه متعبداً به ودستوراً المسلمين وغير ذلك، وهو قصر قلب رداً على من اعتقد تحكيم الرجال، للتأكيد مبيناً أن التحكيم لكتاب الله لا يتعداه إلى غيره من الأسباب،وأنه لم يكن الفريق المتولي عن كتاب الله، بل غيره فعل .

والقصر الثاني الوارد بـ(إنما) في قوله : (إنما هو خط مستور بين دفتين) هو قصر إضافي قصر

---

[1]) نهج البلاغة : ٢/٢٤١.

موصوف على صفة قصر قلب، فالتابعون له قد يظنون أن مطلق تحكيم القرآن له دخل في النصر والفوز بالحق، فقلب حكمهم بأسلوب القصر المفيد للتأكيد والتعريض، مبيناً أن القرآن كتاب مكتوب لا يلقي أحكاماً منطوقة بل مستوحاة عبر الراشدين من الرجال،فأثبت لهم بهذا الأسلوب طبيعة القرآن ،فضلاً عما فيه من تعريض بمن استغل تلك الصفة وحكم على هواه..

ويأتي القصر الثالث في قوله(وإنما ينطق عنه الرجال)والقصر إضافي لأن المنفي معين هنا،قصر صفة على موصوف، لبيان أن هذه الصفة محبوسة على الرجال، ومختصة بهم للتعريض بأن من تعرض للتحكيم بينه وبين عدوه كانوا على غير هذه الصفة ، ويؤكد ذلك تقييده النطق بقوله(عنه) أي وجب عليهم أن ينطقوا بمراده،وهو قصر قلب؛لأن المخاطبين وجدوا في تحكيم القرآن سبيلاً للخلاص،فرد عليهم الاعتقاد بأنه ليس الناطق بالحكم ، بل الحكم ينسب للناطقين بلسانه ليحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن.

ولو جاء القصر بالنفي والاستثناء هنا لفقدت مزية التعريض من الكلام،ولكان التعبير الذهني غير نابض باللطائف الدقيقة،التي قصدها (إنما) في العرض،ولفقدت وحدة الرسم في كل أجزاء الصورة،والجو العام المرتسم من هذه الأجزاء،من هدوء الخطاب،ولين الكلام،ولفقدنا الإشعار بالتنبيه؛لأن النفي والاستثناء يأتي في الأمر المجهول الذي ينكره المخاطب،وهذا المعنى لا يستدعيه مراد الخطاب عند الإمام علي.

** ومن قصر الإمام علي بـ(إنما) في الأمر الجلي لما عوتب على التسوية في العطاء بقوله :

(لَوْ كَانَ الْمَالُ لِيْ لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ)([1]).

يعرض ملابسات توزيع المال بين الرعية، حتى يغمر الجو كله بالرضا والتعاطف، ليقرر الأمر وهو معلوم لا يمارى فيه، فالجميع يعلم أن المال هو مال الله -سبحانه وتعالى- ولكنه أراد أن ينبه المخاطب لما يجب عليه من حرمة المال وحقوق الرعية الواجب مراعاتها ،وكان القصر ذريعة إلى استدعاء ما يستوجبه هذا من التعريض بنسيان الرازق الحقيقي وهو

---

[1]) نهج البلاغة : ٢/٢٤٣.

مسبب الأسباب، وأن معالجة البشر ليس إلا مباشرة أسباب،إن شاء ترتبت عليها مسبباتها، وإن شاء تخلفت،مما يعني التعريض بالجاحدين،وتعرية جحودهم ونكرانهم. والقصر إضافي تحقيقي،قصر قلب لاعتقاد المخاطب أنه يملك التسوية ومخالفة الأنصبة المحددة من قبل التشريع في التوزيع، فرد اعتقادهم وعلل بأن إعطاء المال في غير حقه ليس من اختياره؛لأن المال في الحقيقة والأصل مال الله يتم توزيعه كيف يشاء.

ولو تم القصر هنا بغير(إنما) حيث يكون بالنفي والاستثناء؛ فيقال ما المال إلا مال الله، أترى المعنى هادئاً ليناً ناعماً دون جلبة أو ثورة كما في صورة القصر بـ(إنما) ؟! أم تراه صارخاً شديداً خشناً في النفي والاستثناء؟! ولقد اقتضى الحال في الرد عليهم على طلبهم أن يكون بكل هدوء وروية، مما يؤكد بلاغة الإمام ومراعاته أحوال المخاطبين النفسية ،ولعل هذا ما اقتضى مخالفة السياق لما ورد هنا فيأتي بوضوح ويعلنه بقوة في موضع آخر من كلامه عندما يلجأ للأسلوب المغاير(النفي والاستثناء) فيقول: (ولا يؤنسنك إلا الحق ولا يوحشنك إلا الباطل)([1]).

بل إن(إنما) في الأسلوب الأول صورت المعنى في صورة الواضح الذي لن يكون مجالاً للشك والإنكار،مما يؤكد أنه لن يطلب مناصرته بالجور فيمن ولي عليهم،ولن يضع المال في غير حقه،ويدعم المعنى سياق الاستفهام التعجبي الإنكاري بـ(كيف) في بداية العبارة، فكان لذلك التناسق العجيب في جو الصورة وفي تماثل جزئياتها، وفي توزيع هذه الجزئيات على الرقعة المراد إيصالها في الكلام ، فتتابع مجيء النفي الواحد تلو الآخر لتأكيد حقيقة كونه لا يملك مالاً ، وأن التقسيم متروك لله.

وفي مثل هذا يقول لبيد مستغلاً خصوصية(إنما) في التعبير والتعريض:

فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ المَلِيـــــكُ فَإِنَّمَا *** قَسَمَ الخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَّامُـــــهَا([2])

---

[1]) نهج البلاغة : ٢/ ٢٤٨.

[2]) ديوان لبيد : ١٦٨ ت/ إحسان عباس الكويت ط ١٩٦٢م.

وهنا نستأنس بملاحظة أخرى في التعبير بـ(إنما) في قول الإمام عليّ (إنما المال مال الله) هو التعريض بمقولة قارون في قوله تعالى:﴿"قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾([1]).وتلك المقولة وردت في القرآن مرتين،حاز قارون بواحدة،واكتفت بقية الطوائف التي على شاكلته بالأخرى،وهي تعبير يفيد الزهو والغرور ونسيان الرازق الحقيقي، وادعاء الخبرة والدربة والمهارة ، وأن ما حصله إنما كان بجهده لا بتوفيق الله ورزقه.([2]) فالقصر في قول الإمام عليّ يعرض بهذا النموذج وما يتجه إليه من افهيار فكري، ويبرز المفارقة بين الجحود واليقين.

**ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الجلي قول الإمام عليّ في النهي عن عيب الناس وذمهم :

(وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ العِصْمَةِ وَالمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالمَعْصِيَةِ ، وَيَكُونَ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخاً وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ)([3]).

يؤكد الإمام في كلامه أنه يجب على من أنعم الله عليهم وأحسن إليهم بالسلامة من الذنوب والآثام أن يتواصلوا مع إخوانهم من المذنبين العاصين ،ولا يعيبونهم متذكرين موضع سترهم من الله في حالة الذنب الذي هو أعظم من الذنب الذي يعيبون الآخرين به، وهذا الأمر معلوم لدى المخاطبين لا يتردد فيه عاقل ،ولا يدفعه منكر،ولكن الإمام ينفذ من وراء ذلك إلى تنبيههم إلى حق قد أهملوه وتناسوه؛بإهمال حق الأخوة عليهم بالرحمة والتماس العذر، وتعريضاً بهم إذ كيف يذمونهم متناسين أنهم أنفسهم قد عصوا الله فيما سواه مما هو أعظم منه.

فضلاً عما في ذلك من جرأة على الله فلعل المذموم المعيب مغفور له، والعائب معذب به، ووجد الإمام عليٌّ في(إنما) هنا وسيلة معبرة عن مراميه ومقاصده، فهي أنسب للإقناع والاقتناع،بأسلوب هادئ لين وليس الأسلوب الصارخ الشديد اللهجة،إذ لو قال لهم

---

[1]) سورة القصص آية (٧٨).

[2]) بتصرف : أسلوب القصر في محكم النظم : ٢٧٦.

[3]) نهج البلاغة : ٢/ ٢٥٦.

: ما ينبغي على أهل العصمة إلا أن يرحموا أهل المعصية،لأشعرنا هذا الأسلوب بإنكار المخاطبين لحقيقة ثابتة،وعدم القبول وشدة الرفض، وهذا المعنى لم تقصده بلاغة الإمام، بل أراد تحريك الساكن،وتنشيط الخامل،حتى يتحقق له غرضه،فهو يعلم الطبيعة البشرية ومقتضيات الحوار معها.

والقصر هنا قصر إضافي قصر قلب لتصحيح الاعتقاد،أي ما يجب على السالمين من الذنوب إلا أن يرحموا غيرهم من المذنبين، فقلب اعتقادهم وما استقر فيه من الشدة على المذنبين،وقد كان المقام لـ(إنما) لبيان أن مثله مما لا يخفى ،وأن الحكم على عكس ما استقر في العادة، وهو من قصر موصوف (أهل العصمة) على صفة(رحمة أهل المعصية).

ويؤكد ذلك القصر الثاني بتعريف الطرفين في قوله(ويكون هو الغالب عليهم) تكملة للمعنى للأول،واستحضاراً للمعنى الثاني وما يستتبعه من إشارات وعظية اقتضاها السياق،ثم يتناسق العرض السياقي بمجيء الاستفهام التعجبي في: (فكيف بالعائب الذي عاب أخاً وعيره بلواه) وكذلك تنكير لفظ الأخ وما يفيده من عموم أو تعظيم، كما أن انسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة تابع تأثير الإشعاع الخاص بالتعبير، فأثرت هذه الظواهر البلاغية مجتمعة في دقة البناء.

***ومن قصر الأمر الجلي قول الإمام عليّ :(وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ إِلاَّ الْحَيَاةَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ لَهُ فِي الْمَوتِ رَاحَةً، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلأُذُنِ الصَّمَّاءِ،وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ،وَفِيهَا الْغِنَى وَالسَّلَامَةُ)([1]).

ها هو الخطاب يرسم سمة الموقف البشري من الحياة، وتبرز فيه الأماني وحب الحياة،وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية،فيعلل لخوف الإنسان من الموت، لأنه لم يهيئ من العمل الصالح الباقي ما يكسبه السعادة بعد الموت، وحتى يتم التناسق تعددت

---

[1]) نهج البلاغة : ٢/٢٥١.

أساليب القصر بل تداخلت كلها ليرتقي الذهن من النفي والاستثناء إلى القصر بـ(إنما)،إلى القصر بالتقديم.

وقد بدأ الحوار بالنفي والاستثناء لكونه يحتاج إلى التوكيد والتقرير، وهو مقام نزل فيه المخاطبون منزلة المنكر الذي يشك في الخبر، بتقدير أمر صار به في حكم المشكوك،لشدة حرصهم على الحياة والبقاء نزلوا منزلة المنكرين لزوالها،لإغفالهم حقيقتها، فخوطبوا خطاباً قوياً، وهو من قصر صفة انتفاء الشبع على موصوف هو الحياة، قصر حقيقي إدعائي،ولما كان هذا الأسلوب صارخاً مثيراً للانتباه بعنف؛ لجأ لما هو ألين وأرق في الخطاب بعد إثارة الفكر،فأتبع أسلوب النفي القصر بـ(إنما) لإبراز شعور الإنسان بخيفة ما بعد الموت بمنزلة حكمة واعظة تنبه من غفلة الغرور وتبعثه إلى خير العمل، فناسبت(إنما)المقام؛لأنه حديث عن الحكمة والحكمة تقتضي هدوء الحوار ولين الكلام.

والمخاطب هنا لا يماري في صحة الخبر،ولكن الإمام عليّ يريد تنبيهه إلى دور الحكمة في إحياء القلوب،وإبصار المجهول،فأراد من تذكيره بالمعلوم أن يبني عليه استدعاء ما يوجبه من الاستعداد لما بعد الموت، وإزالة شعور الخوف بالأخذ بأسباب الإزالة، وفي هذا تعريض بأمر هو مقتضى المعنى المباشر من انتفاء الحكمة عند من يخاطبون،وكانت (إنما) هنا وحدها كفيلة بإيصاله،وهو قصر إضافي قصر قلب قصر صفة هي(خشية الموت)على موصوف(الحكمة).

وبمجرد الانتهاء من هذا الحكم وإلقاء القرار، ربط المعنى بالصورة لما للعبارات من ظلال خاصة حينما تستدعي صورة مدلولها الحسية، فجعل الحكمة على سبيل التشبيه البليغ حياة للقلب الميت،وبصراً للأعمى،وسمعاً للأصم، وريا للظمآن، فيدور الخيال مع مجموع الحياة ومداركها الممنوحة على العموم،حتى تأنس النفس وتعلو حرارة فهمها للمقصود، وتجعل المخاطبين تتبدى لهم شتى ملابسات الإدراك،وتجعلهم يحسون الحكمة في كل شيء تقع عليه العين،أو يتلبس به السمع والحس، وهكذا يبدو لون من البلاغة الظاهرية والفصاحة

اللفظية من جمع أسلوب بياني في صورة بديعية من طباق ومراعاة للنظير.وهكذا أيضا هنا ارتبطت(إنما) خاصة بالصورة الفنية.

ثم يؤكد الإمام عليٌّ مراده بقصر ثالث بتقديم الخبر على المبتدأ،في قوله(وفيها الغنى والسلامة) حيث قصر الغنى والسلامة على الحكمة،وهو قصر قلب لنفي أن يكون غيرها فيه الغنى والسلامة.

وهكذا تنوعت أساليب القصر في التعبير تأكيداً لبراعة الإمام في الصياغة ولعرض مراحل حوارية متتالية تستغرق الخطاب.

ومن الشعراء الذين اتفقوا مع الإمام عليّ في المعنى واختلفوا في المذهب عمران بن حطان([1])يصور تهالك الناس على الدنيا وهي ليست بدار قرار([2]). وقد اتفق في الصورة واختلف في العرض بقوله :

أَرَانَا لَا نَمَلُّ العَيْشَ فِيهَا *** وَأُولِعْنَا بِحِرْصٍ وَانْتِظَارِ

وَلَا تَبْقَى وَلَا نَبْقَى عَلَيْهَا *** وَلَا فِي الأَمْرِ نَأْخُذُ بِالخَيَارِ

كَرَكْبٍ نَازِلِينَ عَلَى طَرِيقٍ *** حَثِيثٍ رَائِحٌ مِنْهُم وَسَارِي([3])

***ومن قصر الأمر الجلي قول الإمام عليّ عندما استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص إلى قتال الفرس بنفسه:(..وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالمَعُونَةِ)([4]).

يعرض ويحدد هنا حلقة الاتجاه الذي ينبغي أن تتجه إليه العقيدة الراسخة، وهو أن النصر لا يتم ولا يتحقق إلا بمعونة الله،لا بكثرة العدد،وهو مشهد يتفق مع الطبيعة الذاتية للمتكلم والمخاطب معاً وكيف لا وهما عمر وعلي؟وهو مشهد لا يسمح لأي نوع من أنواع التمهل

---

[1])شاعر بصري سدوسي من شيبان،أدرك صدراً من الصحابة، كان من الخوارج توفي ٥٨٤ (خزانة الأدب وغاية الأرب : ٢/ ٤٣٦ : ابن حجة الحموي ت /عصام شعيتو دار الهلال بيروت ١٩٨٧م.

٦٣) تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي: ٣١٠ د/ شوقي ضيف دار المعارف ط الخامسة والعشرون بدون.

٦٤) خزانة الأدب :٤٣٦/٢. الحثيث : السريع. الساري : الذي يسير ليلاً.

[4]) نهج البلاغة :٢٦٢/٢.

أو تجزئة الفكرة،وفيه تدرج بما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع،حيث قدم العرض الأول لتأكيد انتفاء النصر بالقوة العددية،واقتضى العرض الثاني تأكيد ذلك،فكانت(إنما) هي المعبر ليبني عليها استدعاء ما يوجبه وجودها من تذكير عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- بما ورد في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ*إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ* بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾([1])

وهذا التذكير من جانب الإمام عليّ بسياق الإمداد بالملائكة للقتال مع المؤمنين،وقد جعل الله أمر الإمداد بالملائكة من أجل البشرى بالنصر،إذ هو من عند الله ،وليس متوقفاً على قلة ولا كثرة ولا عدد ولا عدة ولا بشر ولا ملك،وإنما هو من عنده وحده، ومع الفارق بين أسلوب الآية في القصر بالنفي والاستثناء، وفي الخطاب بـ(إنما) مما يؤكد بلاغة الإمام عليّ ،فهو يخاطب أمير المؤمنين وصحابي رسول الله،مما اقتضى الموقف الهادئ اللين الناعم دون جلبة أو ثورة، فالقصر قصر حقيقي،وفي هذا حسم للقضية المنظورة للتقدم فيها خطوات وقف عندها الأسلاف،وبالتالي يستوجب التعريض بقوة العقيدة الراسخة عند السابقين من المسلمين، ولذلك قال(كنا)،وهذا الأمر كله معلوم لدى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه وأرضاه -، لكن(إنما)كانت هنا ذريعة إلى استدعاء ما يستوجبه التعبير بها من توجيه الهمة اعتماداً على قوة الإيمان، وكان عمر قد أهمله أو تناساه .

وهنا يحسن لنا أن نشير إلى وصية عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- إلى سعد بن وقاص ومن معه من الأجناد -وقد تشابه الموقفان -إذ يقول:(فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو...وإنما ينصر

---

[1]) سورة آل عمران آيات(١٢٤،١٢٥،١٢٦).

المسلمون بمعصية عدوهم لله،ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ،لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم)([1]).

لا يسع المرء إزاء هذه الوصية إلا أن يقف مذهولاً أمام هذا الوضوح في التصور،وقد سب الإكثار من حروف القلقلة والحروف الحلقية كالقاف والعين جو القوة ومناخ المسيرة نحو الحرب والتمسك بالتقوى،...وأهم ما يلفت النظر أنه لم يركب طريق المجاز،وذلك ما يتلاءم مع نص هو في طبيعته أمر عسكري، يتلقاه الجند بالطاعة والتسليم.([2])

وقد ناسبت (إنما)هنا لأن المخاطب هو صحابي جليل(سعد بن أبي وقاص) ناسبه هدوء الخطاب ، وتنزيل المجهول وهو النصرة بمعصية الأعداء منزلة المعلوم،إشارة إلى وضوح الأمر في ذاته وضوحاً يظهر للمتأمل؛لتؤكد محوراً واحداً أن النصر حاصل ما اتصل المسلمون بأسباب التقوى وقد تعارض هدف عمر بن الخطاب من (إنما) مع هدف الإمام عليّ كل حسب غرضه ومرماه منها،وإن اتفقا على دورها في التعبير فكانت المعبر للمقاصد،كما كان الجانب التعريضي من جانب عمر بن الخطاب بأن الهزيمة لو وقعت كانت دلالة على وقوع المعصية من جانبهم، ويؤكد ذلك تعبيره بالفعل المضارع (ينصر) الدال على التجدد والاستمرار مما ناسب السياق التعبيري وناسب تجدد أحوال الجهاد.

** ومن القصر الوارد بـ(إنما) في الأمر الجلي قول الإمام عليّ:

(فَإِنَّمَا الْبَصِيْرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ،وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ)([3]).

هذه حدود تجمع بين وسائل الإدراك، وآفاقها موزعة بين أكثر أدوات يحاسب بسببها الإنسان، كما أنها موزعة ترتيباً منهجياً فالسمع أولها فيليه البصر فيليه الفكر،وحسن استخدامه للفاء العاطفة هنا،وهو خطاب يناقش البصيرة وليس البصر كحاسة للرؤية، بل يريد ناظر قلب اللبيب الذي يعمل بالبصر،ولذلك عبر هنا بالبصير. "فالبصير المختص بأنه

---

[1]) العقد الفريد :١/٩٣،٩٢ : أحمد محمد بن عبد ربه ت/ محمد سعيد العريان- دار الفكر بيروت بدون.

[2]) بتصرف : فن الكتابة والتعبير : ١٠٩ د/ محمد علي أبو حمدة مكتبة الأقصى الأردن ط ثالثة ١٤١٤هـ ١٩٩٤هـ.

[3]) نهج البلاغة : ٢/ ٢٧١.

يدرك المبصر إذا وجد، وأصله صحة الرؤية،..والبصير بمعنى العالم تقول : منه هو بصير،وله به بصر أي علم ".([1])

والمخاطب بـ(إنما) هنا لا يجهل هذا الأمر،بل الأمر معلوم واضح لا يشك في مضمونه. ولكن الإمام أراد من القصر بها استدعاء ما يوجبه التعبير بها من التذكير بكونه بصيراً من بيان التقصير في تدبر العواقب،والانتفاع بالعبر المرئية،مما يؤكد عدم انتفاع المخاطب بالوسائل الممنوحة،وفي ذلك تعريض بعدم الاستفادة بالأسباب والمعطيات،والقصر هنا قصر موصوف على صفة،قصر إضافي قصر قلب لاعتقاد المخاطب أن البصير من يمتلك أداة البصر. فقلب اعتقاده هذا مؤكداً أن البصر هنا يعني البصيرة، مصححاً للاعتقاد،فالناظر بالقلب العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم أعمله عليه أم له؟ فإن كان عليه وقف عنه بإحضار عقله وفكره.

ولو افترضنا زوال القصر بـ(إنما) من الكلام فهل يصل المرام من معنى الكلام؟ وهل تكون النغمة الهادئة في الحوار؟ وهل يتأكد الطريق الذي يوضح التفصيلات للمخاطب؟ إن الإمام وجد في (إنما) أداة مقصودة للتأثير الوجداني،فتخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة فنية،أنشأت حواراً استدلالياً كافياً للإقناع ، فناسبت(إنما) بأسلوبها الهادئ تنفيذ ذلك على أرض الواقع،كما كان حسن اجتذاب السمع بالسجع ،حتى ينسجم اللفظ مع المعنى.

*** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الجلي قول الإمام عليّ :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي ([2]) لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَه)([3]).

دعوة تذكيرية بغياب العقول،وعدم التزام السنن القائمة والآثار البينة،عند تتبع طرق الشيطان مع العلم بأنه يقف للإنسان بالمرصاد في الغواية،وهذا الأمر لا يجهله المخاطب ولا ينكره ولكن لغياب الفكر والغفلة البشرية عن تلك الحقيقة يراد تنبيه المخاطب لمردود

---

[1]) الفروق في اللغة :٧٤.

[2]) يسني: يسهل ،يقال هذا مما يسنك على الطعام : يشحذك على أكله ويشتهيه إليك (المعجم الوسيط:١/٤٧٣).

[3]) نهج البلاغة : ٢/ ٢٥٦.

تلك الغفلة عليه،ولاستدعاء ما يستوجبه أمر التنبيه من الرفض لمغرياته،والوقوف في وجه تحدياته،كما أن (إنما) تنفذ من وراء هذا إلى التعريض بأمر هو مقتضى المذكور هو فرط الغفلة وسهولة الانقياد للعدو، وما يستلزمه ذلك من الحكم عليهم بأنهم في حكم من ليس ذي عقل. وقد يكون التعريض بمعاوية ومحاولته اجتذاب الناس إليه، وهذا هو فضل الأسلوب وسر جماله وتمكنه، وكانت (إنما)أداة تخاطب حاسة الوجدان بلغة فنية، هادئة لينة مستميلة للمشاعر قبل الفهم.

والقصر قصر حقيقي إذ أن الواقع يؤكد أن الشيطان يسهل سبله حتى يسهل اتباعه والاستماع لوساوسه،والقصر يقصد به قصر موصوف على صفة.هذا ولو استعمل الإمام هنا النفي والاستثناء لأخل بالإيحاء النفسي المطلوب لغة وحواراً،ولاختلفت نسبة القبول للمطلوب في الاستيعاب؛لأن اللغة الحوارية والاستمالة بلين الخطاب ستتبدل،ويحل مكانها العنف والشدة ودلالة الرفض والإنكار،وهذا ما تدركه فطنة الإمام وبلاغته التعبيرية.

وخصوصاً مع الإشعاعات اللفظية الواردة في كلمة(يسني) فإن كانت الكلمة من السنا وهو الضوء تلقي ظلالاً على طريقة الوسوسة في النفس،وكيف يلقى بها في الفكر كالضوء في الظهور وسرعة النفاذ،وإن كانت من السناء بمعنى يرفع ويعلي درجة الوسوسة بطريقة تدريجية تتناسب مع الغرض،وعلى كلا الاحتمالين فالكلمة تترك الخيال ليذهب طولاً وعرضاً في عمق وارتفاع،والتشديد في الكلمة يساعد في إكمال جو المشهد.ويساهم التعبير بالفعل المضارع(يسني) وما يفيده من تجدد واستمرار في إكمال جوانب المعنى التحذيري حتى يتمثلها الخيال، بل إن كلمة(طرق) واختيارها هنا دون ما عداها وما توحي به من الطول والبعد والظلمة زادت من جوانب الصورة أيضاً.فاقتضت البلاغة لفظة (طريق) للدلالة على أنه مطروق ...وهو أدخل في باب الدعوى،والتنبيه على أنه متعين ومحدد.([1])

وإن كلمتي(تتبعوا عقبه) تخيلان حركة خاصة وهي صورة حين تجسم هكذا تبدو عجيبة من الآدميين وبينهم وبين الشيطان الذي يسيرون وراءه، ما أخرج أباهم من الجنة!

---

[1]) بتصرف : صفاء الكلمة :صـ ٣٦ د/عبد الفتاح لاشين- دار المريخ ط ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

(١).فيظهر الاتباع للذهن بالجسم والأقدام والصوت،فطرحت الكلمة المعنى الذهني متخيلا محسوساً ما تابعه الخيال...

ثانياً : المبحث الثاني :استعمال الإمام علي لـ(إنما) في الأمر الخفي:

قد تأتي(إنما) في المقامات التي يكون الأمر الذي تستعمل فيه -من شأنه -الإنكار والجدل أو يكون خفياً أو غيباً مكنوناً،أي تجيء في الأمر المجهول الذي يتزل منزلة المعلوم. دلالة على أن هذا الأمر واضح في ذاته، وأنه إن عرض له خفاء عند المنكر فهو خفاء طارئ يزول بالتأمل والنظر المعبر،إذ لا ينبغي أن يكون خفياً أو موضع إنكار.(٢)

وهذا ما أشار إليه الإمام عبد القاهر بقوله: "ومما يجب لك أن تجعله على ذكر منك من معاني (إنما) ما عرفتك أولا من أنها تدخل في الشيء على أن يخيل فيه المتكلم أنه معلوم ، ويدعي أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع"(٣).ويكون سياقها هنا سياقاً هادئاً ونبرة الكلام معها خفيفة. دلالة على أن هذه الأمور التي تجئ واضحة في ذاتها.

** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي من أقوال الإمام عليّ في خطبة في ذم أهل العراق بقوله:(أَمَّا بَعْدُ يَاْ أَهْلَ العِرَاقِ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَـالمَرْأَةِ الحَامِلِ . فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ(٤) وَمَاتَ قَيِّمُهَاْ. وَطَاْلَ تَأَيُّمُهَا وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَاْ)(٥).

يريد أنهم لما شارفوا استئصال أهل الشام وبدت لهم علامات الظفر بهم جنحوا إلى السلم إجابة لطلاب التحكيم، فكان مثلهم مثل المرأة الحامل لما أتمت أشهر حملها ألقت ولدها بغير الدافع الطبيعي، بل بالحادث العارض كالضربة مثلاً،وقلما تجده بعد ذلك إلا هالكاً. ولم يكتف في تمثيل خيفتهم في ذلك حتى قال ومات مع هذه الحالة زوجها،مما يؤكد شدة الخسارة وتعدد صورها،وليوائم آثار الخيبة وانعكاساتها بالمشاعر المضطربة، بل زاد في تناسق الصورة

---

١) بتصرف التصوير الفني : ٧٧ .

٢) بتصرف : البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف :٥٢ – د/محمد أبو موسى ط دار الفكر العربي بدون.

٣) دلائل الإعجاز :٣٥٧.

٤) أملصت : ألقت ولدها ميتاً.

٥) نهج البلاغة : ١/ ١٤٠.

ما أكده من تعرضها للذل بفقدها من يقوم عليها، حتى إذا هلكت عن غير ولد ورثها الأباعد في درجة القرابة ممن لا يلتفت إلى نسبه.وكل هذه المعاني لم تجد طريقها للتأكيد بأسلوب هادئ رزين لين إلا بـ(إنما)،وهذا الأمر المخاطب به أهل العراق أمر مجهول في إدراكهم لا يقرون به في دواخلهم،ولكن نزله الإمام عليّ منزلة المعلوم لادعاء ظهوره ولتأكيد أنه واضح في ذاته،لا يدفعه برهان ولا تدحضه حجة. ولذلك ترى كلامه جاء مؤكدا للفكرة. ولو قصر بالنفي والاستثناء لزال أجلُّ ما فيه وهو ما افترضه الإمام من علمهم بحقيقة دواخلهم علما ظاهراً، ولزال التعريض بالخذلان والخسارة الناتجة من مواقفهم معه. والقصر إضافي قصر موصوف على صفة قصر قلب لعكس حكمهم. فقد ادعوا أن جنوحهم للسلم أحسن اختيار وأفضل اتجاه ، فرد عليهم اعتقادهم هذا بأنه طريق الخسارة والندامة.

ويخلع الحياة على موقفهم السلبي ذلك فيصبح ظاهرة إنسانية تشمل المواد والظواهر والانفعالات وتأخذ وتعطي،وإذا بالمعنى الذهني هيئة وحركة مصورة بالكلمات،فصورة الخذلان والخيبة تصورها للعين صورة المرأة الحامل تلك التي تداخلت أحوالها وتناوبت عليها الشدائد. فهما يلتقيان في الحال والنتيجة ، فكان التشبيه التمثيلي.

*** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي قول الإمام علي :

(أُولِي الأَبْصَارِ وَالأَسْمَاعِ وَالعَافِيَةِ وَالْمَتَاعِ هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ...أَمْ لَا فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ ، وَإِنَّمَا حَظُّ لأَحَدِكُمْ مِنَ الأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ قِيدُ قَدِّهِ(١)، مُتَعَفِّراً عَلَى خَدِّهِ الآنَ)(٢).

خطاب للتذكير بالموت والآخرة يطالب بالتوبة قبل الضيق وقبل قدوم الغائب المنتظر،وأخذة العزيز المقتدر، تعددت فيه وسائل التنبيه بدءاً من النداء المحذوف الأداة دلالة على قربه من المخاطبين واستدعاء لسرعة الإصغاء إلى أمر ذي بال،وتدرجاً بالاستفهام من استبعاد(هل من مناص) وتنبيه على ضلال(فأنى تؤفكون) ثم توبيخ(بماذا تغترون). ووصولا

---

(١) قيد قده بكسر القاف وفتحها من اللفظ الأول وفتحها من الثاني: مقدار طوله، يريد مضجعه من القبر.

(٢) نهج البلاغة : ١٦٣/١.

للقصر بـ(إنما)التي نزلت المجهول منزلة المعلوم إيماء إلى أن حظ الإنسان من هذه الدنيا ليس إلا بمقدار ما يدفن فيه من أرض ذات طول وعرض،وهذا لا يخفى على أحد ذو عقل وفكر،وأنه وإن عرض له خفاء فهو خفاء طارئ يزول بالتأمل،فكانت(إنما) على سبيل القصر الإضافي الحقيقي قصر موصوف على صفة، قصر قلب حتى لا يغتروا بالمهلة ولا يضيعوا الفرصة، لتصحيح اعتقادهم بأن الدار تكون في الدنيا.

وقد كانت(إنما) وسيلة التعريض بسوء الفهم وسوء التقدير لمعطيات الحياة. وقد ناسبت هنا المقام الذي يخاطب المتدبرين بأسلوب ناعم يتسرب للعقول بهدوء دون جلبة أو ثورة. ولما كانت معاني الزوال والتغير قريبة للمخاطبين وكان اعتقادهم فيها معاكساً لذلك عند اغترارهم بها،فقد استعملت (إنما) في أسلوب الحصر؛ لملاءمتها له دون سواها من الطرق. فضلاً عما فيها من تعقل حكمي النفي والاستثناء معاً دفعة واحدة،ومن حال واحدة،وهو ما يناسب التذكير بالموت والقبر.

ولو خاطبهم بالنفي والاستثناء لأظهرهم في صورة المنكرين لتلك الحقيقة،ولأخرج الأمر من الأمور المعلومة المسلم بها،وهذا ينافي الواقع لأن الموت حقيقة مسلم بها،لكنهم لنسيانها بالأمل والغفلة نزلوا منزلة الجاهل بها،كما أن النفي والاستثناء لا يدل على حكمي النفي والاستثناء إلا بمساعدة المستثنى منه المقدر،لأن الاستثناء إخراج فلابد من ملاحظة مخرج منه.وتزداد الصورة إيقاعاً بالكناية عن الآباء والأجداد ساكني القبور بقوله(متعفراً على خده الآن) وكأنه يقول:اعتبروا بنزولكم منازل من كان قبلكم ،وانقطاعكم عن أوصل إخوانكم.

وبالإشارة إلى بلاغة الإمام علي في اختيار لفظة (القد) وإشارتها للقبر نذكر قول أبي هلال العسكري : " والقد القطع طولاً،وكل شيء قطعته طولاً فقد قددته".([1]) لما فيها من تحقيق الجناس اللفظي مع لفظة (قيد) ولما فيها من دلالة على اقتطاع جزء يسير،فضلاً عن الإيجاز.

---

[1]) الفروق في اللغة : ١٤٣.

** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي من أقوال الإمام عليّ وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا ملياً، فقال قوم منهم : يا أمير إن سرت سرنا معك فقال لهم: (أَفِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ ؟ إِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِ وَذَوِي بَأْسِكُمْ،وَلَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ،وَجِبَايَةَ الأَرْضِ،وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ... ثُمَّ أَخْرُجَ فِيْ كَتِيْبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى...،وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى تَدُوْرُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي).([1])

قيل:إن كلامه هذا كان عندما كان يغير على أهل الشام على أطراف أعماله بعد واقعة صفين،وهو خطاب عقلاني،يدلل على فساد من طلبوا منه ذلك وعدم سداد رأيهم لقصر نظرهم للأمور ،ويعلل لرأيه بأن قصده رعاية المصر ورعاية شؤون المسلمين كرئيس دولة، يرسل من ينوب عنه ممن يرتضيه كقائد للجيش.

وهنا يستدعي الأسلوب(إنما) دلالة على وضوح الأمر في ذاته،وأن خروج من هو نائب عنه–وإن كان مجهولاً– نزل منزلة المعلوم،وأنه إن عرض له خفاء عند المخاطب فهو خفاء يزول بالتأمل،لاحتياج الدولة إلى القائد،وبقياس الزمن تأتي(ثم) لتخطيط نية الخروج من قبله بكتيبة أخرى تتبع الكتيبة الأولى، وهذه رقعة فسيحة في الزمان والمكان وفي الحاضر والواقع ،وفي خواطر النفس ووثبات الخيال،حتى لا ينبغي أن يكون هذا موضع إنكار،وهو من الصحة بحيث لا يدفعه دافع،ويؤكد ذلك بداية الحوار بالاستفهام الإنكاري،وهذه خطوة أخرى في تناسق الكلام حتى تأتي(إنما)للتعريض بسوء التقدير،بأسلوب القصر الإضافي قصر صفة(الخروج) على موصوف (رجل من الشجعان) قصر قلب؛ لتصحيح اعتقاد المخاطبين الذين اعتقدوا وجوب خروجه بنفسه في القتال،وأنهم من فرط غلبة الهوى عليهم ليس لديهم عقل، لركوبهم متن الشطط،ولعل هذا هو فضل أسلوب(إنما) وسر جمالها وتمكنها؛لأن إدراك مرماها يحتاج إلى قدر من الفطنة والوعي بالسياق.

---

[1]) نهج البلاغة : ٢٣٢/١.

ثم قفز إلى قمة أخرى تساعد على إكمال معالم الصورة المعنوية استغل فيها القيمة الأسلوبية لـ(إنما)مرتبطة بالتشبيه في قوله(وإنما أنا قطب الرحى تدور علي وأنا بمكاني)وإذا بالنموذج الإنساني شاخص حي يرسم صورة دقيقة تعرض منسجمة مع المعنى. وتؤدي الغرض النفسي الذي يرمى إليه،لأن مفارقة القطب مكانه يضطرب بها المدار والأساس. فكانت(إنما)هنا لئلا يتوهم أحد من المخاطبين قربه من المسئولية،فقد نزلت المجهول كونه المدار الذي تدور حوله الرحى منزلة المعلوم لإثبات أنه أمر لا يخفى على أحد،تتبدى صفاته فيما تقع عليه العين،ويدور الخيال مع دورة الرحى التي لا نهاية لها ولا ابتداء تأكيداً منه على محورية الدور والصفة.

والقصر إضافي قصر موصوف على صفة قصر قلب،وقد عز على الإمام عليّ أن يقع هذا الأمر ممن يعدون عليه من الأتباع،ويحسبون عليه من الأنصار. ولما كانت "(إنما) تفيد إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره ".([1]) فقد أثبتت له الصفة مع نفيها عمن سواه دفعة واحدة على الجملة،وهذا أوجز وأسرع في الإعلام بالخبر، وكأنه قال : قطب الرحى أنا لا غيري.

ولو استعمل القصر بالنفي والاستثناء هنا لانقطع الحبل الفكري بينه وبين من يخاطبهم،ولظهرت ذروة التعنيف وما يستتبعها من استنفار نفسي من جهة المخاطبين بالكلام،وهذا كله ينافي بلاغة وفطنة الإمام عليّ في تلمس الضمير الجهادي الصحيح،واستطاعة السيطرة الصحيحة على نفوس المخاطبين .فلا يناقشون بعدها إلا عن يقين وصدق وإيمان .

***ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي من أقوال الإمام عليّ :(وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالاعْوِجَاجِ وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ،فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعْثَنَا،وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى البَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا رَغِبْنَا فِيهَا وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا)([2]).

---

[1]) بتصرف: البلاغة تطور وتاريخ : ١٨٢ شوقي ضيف- دار المعارف ط ثامنة ١٩٩٢م.

[2]) نهج البلاغة : ٢٣٦/١.

هذا الخطاب موجه للخوارج وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار التحكيم، فيعلل للحال التي أصبح عليها في قتاله للبعض من المشتركين معه في الدين وأنه إنما كان بسبب الاعوجاج والشبهة والزيغ،وهذا تحليل فكري منطقي ولذا ناسبت(إنما) المقام ها في ذلك الخطاب دلالة على وضوح الأمر في ذاته وضوحاً لا يحتاج برهاناً على وضوحه،وإنه لو تعرض للخفاء فهذا الخفاء يزول بالنظرة الفاحصة والعقل المتأمل، فسبب القتال من جهة الإمام عليّ لإخوانه في الإسلام هو تقويم ذلك الاعوجاج البادي في أحوالهم وأنه كلما التمس وسيلة للم الشمل، ولإيجاد تقارب للآخرين رفض البعض ذلك وتمسك بالفرقة والاختلاف.

وهنا يقصر الإمام قتاله بـ(إنما)على سبيل القصر الإضافي قصر قلب،لتصحيح اعتقاد الخوارج بعد رفضهم التحكيم وخروجهم عليه،بإجلاء الحقيقة أمام ناظرهم،لقلب تأثيمهم للإمام عليهم، ببيان وقوعهم في الإثم بإصرارهم على موقفهم من المفارقة للجماعة،وكانت (إنما) الأسلوب الهادئ في الحوار المتدرج في الخطاب، وليست دقة (إنما) بلا هدف هنا، بل هي مسألة لوحة تعبيرية سياقية،تذهب طولاً وعرضاً في مراميها البلاغية،من التعريض بالخوارج والتعريض بقتالهم له وهو على الحق الذي ليس فيه شبهة، وما يشير إليه ذلك من وقوفهم بجانب الباطل والدلالة على تعارض الأهداف والقيم، بدليل تعبيره(فإذا طمعنا في خصلة):أي وسيلة. والطمع " ما يكون من غير سبب يدعو إليه ،فإذا طمعت في الشيء فكأنك حدثت نفسك به من غير أن يكون هناك سبب يدعو إليه،ولهذا ذم الطمع ولم يذم الرجاء"([1]). ولهذه الكلمة وظيفة أساسية في مصاحبة المشهد المعروض، من زيادة الحلقة من جهته، وترسم الأمر في صورة غير الحق، ويصل بها الشعور منه إليهم،بالمشاركة الوجدانية وبالتخيل المحسوس.

** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي من خطابة الإمام عليّ:

---

[1]) الفروق في اللغة : ٢٤٠.

(وَأَمَا قَوْلُكُمْ لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَحْكِيمِ، فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ،وَلَعَلَّ اللهُ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ).(١)

يبين سبب موافقته على التحكيم بينه وبين معاوية،ويضع حدود الموافقة أمام فكر العاقل الحكيم ليتملى الصورة بكل المقاييس، ويأتي بـ(إنما) في الأمر المجهول بتنزيله منزلة المعلوم دلالة على وضوحه في ذاته وضوحاً بيناً لا يخفى على أحد. فنزل إنكارهم للأمر(قبول التحكيم) منزلة عدمه لظهور الأدلة،وما فيه من التعريض بغباوة من لم يفهم هذا الأمر مع وضوحه ذلك الوضوح الظاهر لكل ذي بصيرة ، ومن محاورة تعبيرية هادئة وخطاب فكري رزين بـ(إنما) اللينة الجانب في التعامل النفسي الذكي مع المخاطبين.إنهم الخوارج وحاشم الشدة والعنف،فاستلزم الخطاب (إنما) مراعاة لموقفهم وطبيعتهم،يمر منها النسيم الإيحائي إلى المخاطبين. بوجوب تعاملهم بنفس الرقة والنسيم في الحوار في الرد عليه، وبفقدهم هذه الخاصية بطريق التعريض الدالة عليه(إنما)،تأكيداً على جفائهم وغلظتهم الحوارية في التوبيخ البادي من سؤالهم،وقد قابل هذا التوبيخ أيضا بتوبيخ خفي بعدم الفهم. فعرضت (إنما) محصول فكر الإمام بطريقة فنية في البناء مختصرة موحية.

ولو كان القصر هنا بالنفي والاستثناء لكان الأخذ بالمضايقة للخوارج والاشتداد بسلب الرقة من الحوار،مما يستنفر ردود أفعالهم عليه ويستدعي الاستزادة من التشبث بالرأي من جانبهم،والتعادي له بأكثر مما هم عليه،والإمام أزكى من أن يستنفرهم في ذلك الموقف،ومن هنا كان السياق لاستعمال(إنما) في إفادة القصر. والقصر قصر إضافي قصر قلب لمن اعتقد أن الإمام عليّ قصد الهدنة لغير الحق والعدل، فقلب اعتقادهم عليهم وأنهم هم الحيارى عن الحق لا يبصرونه،وأن الحكم على عكس ما استقر في اعتقادهم قصر صفة على موصوف.

*** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي قول الإمام عليّ :

---

(١) نهج البلاغة : ٢/ ٢٤٢.

(وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الأَعْمَى لاَ يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً...فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ،وَالأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ،وَالبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ،وَالأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ)([1]).

يشير الإمام إلى أن من يقصر نظره على الدنيا فكأنه لم يبصر شيئاً فهو بمنزلة الأعمى، فـ...ـب من المخاطب التنبه لذلك المجهول الذي نزل منزلة المعلوم دلالة على أن هذا الأمر واضح في ذاته،وإن عرض له خفاء عند المخاطب بسبب التصافي لحب الآمال،ووهم الحياة فهو خفاء طارئ يزول بالتأمل والنظر المعبر، ويثبت فيه المتكلم عدم وجود دافع يدفع صحة ما ورد في الخبر،وهذا كلام ينعي على المخاطبين حالهم من عدم إدراك حقيقة الدنيا،استعمل فيه الإمام(إنما) للتعريض بعدم نفاذ بصر المقبل عليها المدبر عن الآخرة،بأسلوب عقلي منطقي هادئ ولذا اقتضى المقام(إنما) لأنه حوار استدلالي ربط العقل بالحجة نشرت فيه النصيحة عبر معدن الرسالة المتضمنة،ولبيان أن لغز الرؤية البصرية لا ينكشف تلقائياً للمخاطب بل بتتبع الظواهر تفكيرياً وربط المقدمات والنتائج للوصول للحقائق.

وكانت (إنما) المعبر المتخذ للوصول إلى الهدف؛ للين جانبها في الحوار ولفضل الأسلوب في التعريض بالعمى لمن لا يرى حقيقة الدنيا، ومن جهة أنها أسلوب مؤدب ومؤثر معاً،أما كونه مؤدباً من حيث إنه يؤدي الغرض المراد منه تلويحاً دون ذكر للطرف المقابل،فلم يقل له أنت أعمى مباشرة،بل ترك له الفهم إن أراد،وأما كونه مؤثراً فلأن ترك التصريح بالطرف المقابل لما أثبت فيه إيماء بأنه واضح بيِّن، فلا تصح المقارنة إذاً بين المثبت والمنفي.

ولو كان القصر بالنفي والاستثناء لتغيرت لهجة الخطاب في النصيحة ،ولعبرت إلى مستوى آخر في الخطاب،من اللين إلى الشدة في الحوار،ولفقدت خاصية التعريض المؤدب للمخاطبين، ولزال من الكلام أجل ما فيه وهو ما افترضه من ظهور الأمر وأن من ينكره فهو أعمى عن الحقيقة،فكانت لـ(إنما) هنا دلالتها في المعنى التي تزول بزوالها من الأسلوب

---

[1]) نهج البلاغة : ٢/ ٢٥١ .

التعبيري.والقصر قصر صفة على موصوف،قصر إضافي قصر إفراد فأفرد بصر الأعمى على الدنيا دون غيرها من المبصرات،وقطع الشركة التي اعتقدها المخاطبون.

وتكتمل الصورة الفنية لدى التعبير بالمقابلات المعنوية لينسجم جو الصورة كلها،فصورة البصير الشاخص من الدنيا(الهارب بكل جوارحه وتفكيره) إلى الآخرة،وصورة الأعمى الشاخص إلى الدنيا وهاتان صورتان تلتقيان في سطر بينما الخيال يستغرق مدى أطول في تصورهما، واحدة بعد الأخرى حتى يدرك مدى التفاوت بينهما، فبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان المفارقة في تصرف الإنسان.

***ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي قول الإمام عليّ: (وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِم وَتَغَيُّبِ آجَالِهِم حَتَى نَزَلَ بِهِمُ المَوْعُودُ)([1]).

دخلت(إنما) لتدل على أن هذا الأمر الظاهر المعلوم للجميع ولا يحتاج إلى أن ينبه عليه،وعلى هذا فلابد من معنى آخر يهدف إليه التعبير،وهو ذم المخاطبين بأنهم غير متذكرين لتلك الحقيقة والتعريض بهم لأنهم يسيرون في نفس الطريق مع عدم الانتباه لذلك،حتى إنك لو حذفت(إنما) يسقط المعنى التعريضي، ولكان التعبير مجرد وصف للأمم السابقة بالهلاك ولم يكن فيه معنى نفي عمن ليس منهم ،ومحال أن يقع تعريض لشيء ليس له في الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه،وهكذا نرى جمال التعريض بـ(إنما)هنا،فضلاً عن أن هدوء ونبرة الكلام معها خفيفة دلالة على أن هذه الأمور التي تجيء واضحة في ذاتها،وأنه إن عرض لها خفاء عند المنكر المجادل للهلاك هو خفاء طارئ يزول بالتأمل،إذ لا ينبغي أن تكون موضع إنكار.

والقصر حقيقي قصر صفة على موصوف وهو أبلغ من قصر الموصوف على صفة؛لأنه يفيد استقلال الموت بالإهلاك وعدم اشتراك أحد معه فيه، كما يفيد القصر أنه لا ينفي أن يكون للموت صفات أخرى غير صفة الإهلاك.([2])

---

[1]) نهج البلاغة : ٢/ ٢٦٣. والموعود على سبيل الإشارة : الموت الذي لا يقبل فيه عذر ولا تفيد بعده توبة .

[2]) بتصرف : علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية :١٩/٢/ د بسيوني فيود مؤسسة المختار ط ثانية ١٤١٩هـ.

وتنزيل المجهول منزلة المعلوم لتهييج وإلهاب ذاكرة المخاطبين،تعريضا بغفلتهم عن أمر هو شديد الظهور والوضوح،والذي لا يتصور خفاؤه،ويؤكد ذلك جعله للأمل طولاً بالقياس البشري،وجعله للأجل غياباً بالبعد المحسوس للخيال الإنساني.وهكذا وجود (إنما) محوري لا يتخيل زواله ؛لأنه بزواله تزول جوانب معنوية وتعبيرية مطلوبة لذاتها مما يؤثر في جوانب حدود التعبير.وفي هذا اقتباس من قوله تعالى:﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾([1]).ولا شك في أن اتجاه الإمام للاقتباس([2]) من نبع القرآن فيه من الإثراء والتنوع للفكرة المطروحة رؤية وشكلاً.([3])

*** ومن القصر بـ(إنما)في الأمر الخفي من أقوال الإمام عليّ :

(إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ مَثَلُ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا)([4]).

---

[1]) سورة الحديد آية (١٤) .

٨٩) الاقتباس : أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث، لا على أنه منه (الإيضاح : ١ /٣٨١).

٩٠) بتصرف :البديع في البنية والدلالة:١٣٣/د عزة جدوع مكتبة الرشد الرياض ط أولى ١٤٢٩ه ٢٠٠٨م.

٩١) نهج البلاغة : ٢/ ٣٣٧.

تلتقي هذه الألفاظ عند مدلولاتها لا من قبيل الدلالة المعنوية فحسب ،لكن من قبيل الطريقة التصويرية حيث عبر الإمام عليٌّ عن مكانته ووجوده بطريقة فنية صياغية، وردت فيها (إنما) باستعمالها في الأمر المجهول الذي يترل مترلة المعلوم،دلالة على ظهوره في نفسه،وأنه من المعروف الذي لا يحتاج إلى تنبيه،ولا ينبغي أن نشغل السامع به،وعلى هذا فلابد من معنى آخر يهدف إليه هذا التعبير بـ(إنما)بتترِيل المجهول مترلة المعلوم ؛هو عمى الخارجين عن حيز ضوءه، والتعريض بالخوارج الذين ركبوا متن الشطط فكانوا من فرط العناد وغلبة الهوى عليهم في حكم البعيد،الذي لا يحيط محيط بصره بالسراج طالما أنه ليس في حيز وصوله،وهذا تناسق فكري وتناسق نفسي،ارتبطت فيه(إنما)بالتشبيه والصورة فدعمت التعبير من جهة الجو الهادئ في الحوار،وهي خطوة يزيد من قيمتها أن لفظاً(إنما) ترسم قيمة وتحدد وزناً يخفي فيه التعاظم والكبرياء،مما يجعلها توقظ وتستفتح نوافذ الفكر عبر مضمولها،فناسبت الوصف بالسراج.

ولنا أن نتخيل ورود هذا المعنى بالنفي والاستثناء، وتبدل طريقة الحوار وما يظهره حينئذ من حدة اللهجة في الخطاب،وما يبدو من إنكار وجدال، وما كان وقع التعبير ليصل بنا إلى ما كانت عليه (إنما) من وضوح الأمر وأنه ليس مجالاً للشك والإنكار،وهذا ما أراده الإمام عليّ دون ثورة أو جلبة.والقصر هنا إضافي من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصر قلب ليثبت عكس الحكم الذي يعتقده المخاطبون.ويزيد من قيمة التعبير حسن اختيار اللفظ حين يقول:(يستضيء) وما يفيده التعبير بالمضارع من التجدد زيادة في جوانب الصورة الفنية التعبيرية،فضلاً عما في التعبير(من ولجها) من الإشارة إلى حرية الاختيار وتحديد المواقف،والكناية عن البصيرة النافذة عند الدخول إلى هذا الضوء.

***ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي قول الإمام عليّ وهو يتكلم عن الظالمين المستبيحين للدماء،المحتكمين للهوى:(وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الخَطِيْئَاتِ وَ زَوَامِلُ الآثَامِ)([1]).

---

[1]) نهج البلاغة : ٤/ ٢٨١.

هذا موقف لا يسمح لأي نوع من أنواع التمهل أو تجزئة الفكـرة ،ومـن ثم فقـد جـاء الموضوع خلواً من كل الروابط وتعـبيرات التحول،واسـتعمل(إنمـا)لتـؤدي معـنى في الـسياق؛ وتؤدي تناسباً يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني،والفن والـدين صنوان في أعمـاق النفس وقرارة الحس، بلغة الحوار التركيبي التصويري،حيث كانـت (إنمـا) في سـياق التـشبيه بالمطايـا والزوامل ([1])، والفروق الطبيعية بين هذين الحيـوانين لا تخفـى علـى ذي لب،فقـد جمـع بـين وسيلة التنقل ووسيلة المؤونة والطعام،مما يؤكد وجود مقومات الحياة للخطيئة والذنب.

و قد قامت (إنما) بتنزيل المجهول منزلة المعلوم دلالـة علـى وضـوحه في نفـسه وذاتـه وضوحاً لا يجدي معه إنكار،لتتكشف للناظر آفاق وآفاق حتى يـصل إلى مرحلـة النفـور.ثم تجـد بعد ذلك هذا التأليف المتـوازن المحكـم الرصـين المـوجز، وأصـالة المعـنى وموافقتـه للمـراد بدقة.فمن نظم فصيح إلى سرد عذب إلى معنى مترابط إلى لفظ معبر إلى تعبير مصور.

والقصر هنا إضافي لأن المنفي عنه خاص قـصر موصـوف علـى صـفة لقلـب الاعتقاد،للتأكـيد مبيناً أن زمام الخطايا مقصور على هؤلاء لا يتعداهم إلى غيرهم من النـاس، علـى سـبيل التجـوز والمبالغة،بأن يترل غيرهم مترلة المعدوم لعدم الاعتداد بهم.مع التعـريض الخـاص بـ(إنمـا) بـبني أمية عامة ومعاوية خاصة بدلالة قوله بعد هذه العبارة :(لتتخمنها أمية من بعدي...)([2]).

وجعل البعض هنا مطايا للخطايا يقابل تعبير الإمام عليّ (وإن التقـوى مطايـا ذلـل حمـل عليهـا أهلها وأعطوا أزمتها فأوردهم الجنة) "فنجد هنا صورة الناقة الـذلول قـد سـلس خطوهـا،وخف عنانها فتنطلق بصاحبها في رسيم كالنسيم حتى تدخل به الجنـة، وقـد سـارت بـه تقـواه سـيراً ليناً".([3])

وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازهـا لبيـان هـذه المفارقـة في تـصرف الإنسان، لنؤدي المفارقة الواضحة التقابل بين حال وحال،مستخدمة طاقـات اللغـة وإمكاناتهـا في الدلالـة

---

[1]) الزوامل : جمع زاملة ، وهي ما يحمل عليها الطعام من الإبل ونحوها(المعجم الوسيط :١/٤١٥).

[2]) نهج البلاغة : ٢/ ٢٨١.

[3]) البلاغة فنونها وأفنانها:٢٣٨ –د/ فضل حسن عباس– دار الفرقان – عمان – ط أولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

والتضاد،وقد مس بذلك نقطة جوهرية في الموضوع،لبيان غاية الفرق بين الطرفين،وأنهما يتفاوتان في مدى تحقق الصفة في كل منهما، وبذا تزداد الصورة عمقاً بالبحث عن عناصر الافتراق.

وبعد العموم في القضية يخصص في موضع آخر من خطبه حين يقول:(وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أُرَوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الخَوْفِ الأَكْبَرِ)([1]). ليكون التدرج في الحوار والإقناع،ولتأتي (إنما) لبيان أن الأمر من الصحة بحيث لا يدفعه دافع،في سياق هادئ ونبرة الكلام معها خفيفة،ولعلها كانت أنسب بالمقام في الحديث عن الذات لكي تشعر بالتواضع دون التعالي، يخاطب بها من يعتقد عكس ذلك،وفقاً لربط الموضوع بالأسباب والمسببات،مبيناً أن نفسه مقصورة على الترويض بالتقوى قصر موصوف على صفة لا يتعداها إلى غيرها من الصفات، قصر قلب لمن اعتقد إثباها لمعاوية،ولتكون (إنما) وسيلة للتعريض بالعدو بأنه على خلاف الوصف الذي أثبته لنفسه،مثبتاً لنفسه تجدد الترويض بصيغة الفعل المضارع(أروضها).

***ومن قصر الإمام عليّ بـ(إنما) في الأمر الخفي قوله:(أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَاءُ وَالسُّخْطُ ،وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجَلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا)([2]).

يؤكد أن الناس تجتمع على رضا الله أو تجتمع على سخطه؛لأن الراضي بالمنكر كفاعله ومن لم ينه عنه فهو به راض،وينتقل للاستدلال على كلامه فينتقل بالمشهد إلى الماضي؛ لينظر المخاطب نظرات متباينة إلى نموذج المكابرة العجيبة الذي كان من قوم ثمود،وكيف استوجبوا غضب الله لموافقتهم رأي من رأى عقر الناقة،ليلتقي عندها الذهن حتى يتفهم الحقيقة النفسية الكبرى :الإنسان في قوته مندفع مغتر بالقوة حتى يوجد الحاجز.

ويبدأ خطابه بالنداء استجلاباً للانتباه،وتأتي (إنما) في التعبير الأول(إنما يجمع الناس الرضاء والسخط) لتنزيل المجهول منزلة المعلوم دلالة على وضوحه في ذاته،وأنه من المعروف الذي لا يحتاج إلى تنبيه، ولا ينبغي أن ينكر بل هدف إلى التعريض بالسامعين وأهم ما ينبغي

---

[1]) نهج البلاغة : ٣/٤٨١.

[2]) نهج البلاغة : ٢/ ٣٧٦.

أن يكونوا من الذين ينالون سخط الله. وهذا سر جمال (إنما)هنا وتمكنها من إيصال مرماها اعتماداً على فطنة المتلقي ووعيه بالأساليب. والقصر بـ(إنما) حقيقي لمطابقته للواقع لأن الناس مابين الحالين نيل الرضا أو نيل السخط. وكان القصر المفيد للتأكيد مبينا أن الاجتماع على الاثنين معاً لا يتعداهما إلى غيرهما.قصر صفة على موصوف وهذا أبلغ في التأكيد من جهتين :

الأولى:أنها تفيد استقلال اجتماع الناس على الرضا أو السخط وعدم اشتراك أي شيء آخر معهم. الثانية: أنها لا تنفي أن يكون للرضا والسخط صفات أخرى غير صفة الجمع. كما تكتسب(إنما) موقعها هنا لأنه أمر لا يمكن إنكاره فصحت في موقعها.ولم يصح النفي والاستثناء لعدم موافقته للحال الخطابي،ولزوال التعريض الخاص بـ(إنما) التي هي فيه أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب.

ويأتي التنويع في العرض مع (إنما) حين تؤدي غايتين تعبيريتين مختلفتين: ففي التعبير الأول كانت في الأمر الخفي،وفي التعبير الثاني كانت في الأمر الجلي(وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد) فالمخاطبون يعلمون الخبر هنا ولا يمارون في صحته، ولكن أراد الإمام عليّ من (إنما)أن يجعلها ذريعة لاستدعاء العبرة والعظة والخوف من غضب الله،وللتعريض بالتحذير من استجلاب السخط بفعل ما يستدعيه،لأنه لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه هو التهديد بعذاب الله.

فاختلف الأداء في العرض والغرض، وهذه دقة ومرونة تواجه بديهية المخاطب. وتلمس شعوره ووجدانه وتوجهه إلى الخفايا المعنوية الموجودة وراء التعبير،وهو استشهاد برهاني على القصر الأول،للوقوف على بعض حلقات العبرة ،وتنسيقاً للجو كله بعرض تفصيلي ونموذج واقعي للفكرة ،والقصر هنا قصر إضافي قصر إفراد لمن اعتقد أن العقر قد اشترك فيه جميع قوم ثمود ،فأفرد الحكم لرجل واحد منهم لقطع الشركة التي اعتقدها المخاطبون،وهو قصر صفة على موصوف .

***ومن القصر في الأمر الخفي من أقوال الإمام عليّ: (إِنَّهُ بَايَعني الْقَوْمُ الَّذينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وعُمَر وعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوْهُمْ عَلَيْه...وإِنَّمَا الشُّوْرَى لِلْمُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصار،فَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وسمّوهُ إماماً كَانَ ذَلِكَ لله رِضاً...)([1]).

هذا خطاب وجهه الإمام عليّ إلى معاوية لإثبات أحقيته بالخلافة،فيعرض حلقة مناسبة من حلقات الحوار الاستدلالي،استعمل فيها(إنما)لوظيفة أساسية في مصاحبة المشهد المعروض،بتنزيل المجهول منزلة المعلوم لتأكيد أنه أمر جلي ظاهر لا يخفى على أحد للتعريض بمعاوية؛لأنه من فرط عناده رفض خلافة عليّ مع مبايعة المهاجرين والأنصار له،واجتماعهم على أمر يشير إلى رضا الله عن هذا الأمر،فكانت هذه المنطقة مقدمة إقناع ووسيلة لتنسيق الخطوات والجزئيات.

كما كانت(إنما) للتعريض بكون معاوية ليس واحداً من المهاجرين السابقين للإسلام،وأنه ليس أيضاً من السابقين لنصرة الإسلام. وعلى هذا فهو عبر التعريض ينبه إلى معنى آخر هو مقتضى هذا المعنى ،ألا وهو خروج معاوية عن هذا الحيز والإجماع ،وهذا هو سر جمال(إنما) هنا وتمكنها؛لأن إدراك مرماه يحتاج إلى قدر من الفطنة والوعي بالسياق.لأنه منطق جدل ودعوة ، يترك للخيال أن يتأثر بها على مهل وروية،حتى إنك لو حذفت(إنما) يسقط المعنى التعريضي، ولكان الكلام مجرد وصف لإثبات الشورى.

بل لنفترض مجيء القصر بالنفي والاستثناء وما يرمي إليه من فيض غزير للعنف في الحوار.فهل يكون للسامع في أثناء استعراضه الإقناع الهادئ الذي يسري إلى عقله كما كان بـ(إنما)؟ لندع للمتلقي الإجابة على هذا السؤال،ليدرك الفرق بين الأسلوبين والإيقاعين.والقصر هنا قصر إضافي قصر قلب من قصر الصفة على الموصوف(قصر الشورى على المهاجرين والأنصار).

---

[1]) نهج البلاغة : ٤٢٧/٣.

*** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي من أقوال الإمام عليّ : (إنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيْبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيْباً وَجَنَاباً مَرِيْعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَرِيقِ،وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ ...)([1]).

يتحدث عن المتعقلين لأمر الدنيا المدركين لحالها،المتفهمين لحقيقتها وكيفية استعدادهم للدار الآخرة،ولجأ للتشبيه التمثيلي المتداخل الصور حتى تبصر العين الأمر المعنوي، وللنفاذ إلى حس المتلقي،وتعرض الصورة بهذا التفصيل ويطول العرض وتذكر فيها جميع الخطوات؛لأنها معروضة للعبرة وللتأثير الوجداني،ولبيان دقة العلم بحدود الصورة وجزئياتها.

ويؤكد ذلك اختيلوه للفظة(خبر)بمعنى أنه عرفها كما هي بامتحان أحوالها."والخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها ففيه معنى زائد على العلم."([2]) وتعبيره بالاستعارة في قوله: ونبا بهم منزل جديب،أي لم يوافقهم المقام فيه بسبب القحط وأنه لا خير فيه.وهذا كناية عن حال الدنيا وما فيها من نصب وتعب. والتعبير عن مشاق العمل الصالح بوعثاء الطريق،والكناية عن الموت بفراق الصديق،ثم كانت الجائزة المنتظرة في تعبيره بالكناية عن الدار الآخرة في قوله : ليأتوا سعة دارهم....وهكذا تتداخل الصور البيانية حتى تتقارب في إدراك المعنى شتى المدارك، مع اختلاف الأفهام.

وكانت(إنما) الوسيلة المعبرة والريشة الراسمة للمعنى؛لإبراز الأمر المجهول في صورة المعلوم للإشارة إلى أنه تناهى في الظهور حتى امتنع خفاؤه،وأنه وإن تحولت عنه الذات لا يتحول هو عن العين والظهور،وذلك هو الهدف المقصود من تأكيد ظهوره،وللتعريض بالمقابل ممن ارتضى بالدنيا للآخرة بديلاً،والتصريح بأنه لم يدرك حقيقة الدنيا،فضلاً عما في أسلوب التعريض من الأدب في التلويح بالمراد دون ذكر الطرف المقابل،وترك التصريح به فيه إيماء بأنه واضح بيِّن فلا تصح المقارنة اللفظية إذاً بين المثبت والمنفي.

---

[1]) نهج البلاغة : ٣/ ٤٥٨.

[2]) الفروق في اللغة : ٨٦.

والقصر إضافي قصر صفة على موصوف قصر قلب،رداً على من اعتقد أنه عرف حقيقة الدنيا أي ما خبر الدنيا إلا هؤلاء،لا من اغتر بها وأقبل عليها.فقلب حكمه بأسلوب القصر المفيد للتأكيد.

وكما أكدنا في أكثر من موضع من الدراسة أنه لو استبدلت(إنما) بالنفي والاستثناء لظهر الأمر في صورة المرفوض وغير المرئي وغير المعلوم،والإمام يدرك ويعلم من يخاطبهم.فكانت(إنما) لخصوصية في التعبير تزول بزوال وجودها ،وتغيب بغيابها. فضلاً عما فيها من تعقل حكمي الإثبات والنفي معاً دفعة واحدة ومن حال واحدة،أما النفي والاستثناء فإنه لا يدل على الحكمين إلا بمساعدة المستثنى منه المقدر؛لأن الاستثناء إخراج فلابد من ملاحظة مخرج منه.

***ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي بانزاله منزلة المعلوم الجلي قول الإمام علي، ينصح فيه أحد عماله بمراعاة الأمانة التي كلف بها :(وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ. وَتَنْوِي غِرَّتَهُم عَنْ فَيئِهِمْ ، فَلَمَّا أَمْكَنَتكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الكَرَّةَ . وَعاجَلْتَ الوَثْبَةَ...)([1]).

يباشر الإمام دوره كرئيس دولة يتابع عماله وأحوال الرعية،ومن خلال متابعته اكتشف خيانة هذا العامل للأمانة التي حملها،وكانت (إنما) أداة لعرض هذا النموذج الإنساني المرفوض،ويبرز من خلالها جانب الشخصية،حتى تتهيأ نفوس المتلقين للخبر.

وكانت(إنما) بتنزيل المجهول منزلة المعلوم استطراداً في تبيين الموقف موقف الظاهر، للدلالة على تناهيه في الوضوح بحيث يمتنع أي خفاء معه،وأن الوضوح هو السمة البارزة في المشهد العام، وللتعريض بغياب القدوة عن هذا العامل للناس . بل هو قدوة سيئة كأنموذج.

والقصر قصر إضافي قصر موصوف(العامل)على صفة(الكيد بالأمة)،قصر قلب رداً على من اعتقده أميناً على الأمة،ولما كانت(إنما) تستعمل فيما من شأنه أن يعلم ويسلم به وحال

---

[1]) نهج البلاغة : ٤٧٦/٣.

العامل إنكار واستبعاد الكيد بالأمة؛ فقد بالغ الإمام علـيّ في إثبـات الـصفة وأنها باتـت مـن الشهرة بحيث لا تخفى على أحد،فاستعملت (إنما) بدلاً مـن النفـي والاسـتثناء لاسـتدعاء المقـام لها،وفيها تنبيه ولفت إلى بقية العمال بإبعاد أنفسهم عن هذا الموطن مـن المؤاخـذة.وبعـد عـبر عن اعتقاده بدأ يذكر التفصيلات الدالة علـى سـبب الاعتقـاد،وفي هـذا كمـا قلنـا تعـريض بالخيانة وافتقاد القدوة.

وأجدني هنا استأنس لقول الإمام عليّ في الشعر واستعماله للقصر بالنفي والاستثناء :

وَمَـا الْمَرءُ إلاّ حَيْثُ يَجْعَـلُ نَفْسَـهُ *** فكُنْ طَالبا في النّـاس أعْلَى المراتب
وَكُـنْ طَالِـبَا للرِّزْقِ مِنْ بـاب حلّـه *** يُضاعَفْ عَلَيْكَ الرِّزْقُ مِنْ كُل جانب(١)

كما يشير أبو العلاء المعري إلى نفس المعنى بقوله :

أَغْنَى الأَنَامِ تَقِـيٌّ فِي ذَرَا جَبَـلٍ *** يَرضَى القَلِيْلَ وَيَأْبَى الوَشْيَّ وَالتَّاجـا
وَأَفْـقَـرُ النَّـاسِ فِي دُنْيَاهُم مَـلِكٌ *** يَضْحَى إِلَى اللّجب الجَرَّارمُحْتَاجـا(٢)

كما يقول عمر بن الخطاب –الفاروق– في الطمـع وأثـره في النفـوس والعقـول " مـا الخمـر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع"(٣).ولن أجد تعليقاً على الـنص أوجـز وأدق مـن هـذا التعبير الوارد، مما يؤكد بلاغة العرض ودقة الوصف.

*** ومن القصر بــ(إنما) في الأمر الخفي من أقوال الإمام عليّ بقوله :

(وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِيْنَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْـسُنِ عِبَـادِهِ، فَلْـيَكُنْ أَحَـبُّ الـذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيْرَةُ العَمَلِ الصَّالِحِ..)(٤).

(١) ديوان علي بن أبي طالب : ١/ ٢٠ المكتبة الشاملة قسم دواوين الشعر.

(٢) ديوان أبي العلاء المعري :١/ ١٩٤المكتبة الشاملة قسم دواوين الشعر.اللجب:الصوت والصياح وارتفاع الأصوات وكأنه مقلوب الجلبة،واللجب صوت العسكر والجيش العرمرم(لسان العرب :١/ ٢٤:ابن منظور المصري دار صـادر بيروت)

(٣) ينظر : زهر الآداب وثمر الآداب: ١/ ١٤.

(٤) نهج البلاغة : ٣/ ٤٩١.

هذا الخطاب موجه لمالك بن الحارث الأشتر حين ولاه الإمام عليّ على مصر وأعمالها،وعبر النصح يذكره الإمام عليّ برأي الناس فيه، وأثر هذا التقييم من جانبهم ودلالته الإحصائية،وقد كانت (إنما) وسيلة معبرة لتصدير الأمر المجهول في صورة المعلوم دلالة على وضوحه في ذاته وضوحاً لا يخفى على أحد؛لأن الواقع الفعلي يؤكد مضمون الخبر من إجماع الناس على ذكر صلاح الصالحين وتداولهم ذلك على ألسنتهم في مجالسهم.

واستعمال(إنما) هنا في خطاب الإمام لأحد عماله ينم عن أدب الحوار منه حتى مع من هو دونه،وقد تبنت إيضاح حقيقة ومناقشة فكرة،وكانت (إنما) للتعريض بالعامل وعدم إدراكه تلك الحقيقة وذلك المعطى ؛لأن الأمثلة المستمدة من التجارب لتضيف أبعاداً في الفهم يسعى إليها،إن الاطراد التاريخي هو الملائم لطرح الأمر،إنه العمل الصالح الذي هو الذخيرة عند الله وعند الناس.

والقصر هنا إضافي لعدم الاعتداد بأي شيء آخر من الدلائل،قصر قلب لمن اعتقد خلاف ذلك قصر صفة على موصوف.وقد أكدت كلمة (يجري) كثرة وقوة الشهادة من جانب العباد،واختياره لفظة العباد دون كلمة الناس أو الخلق تؤكد خصوصية الشهادة من جانب خاص من الناس هم من يختصون بوصف العباد،وجعل العمل الصالح هو أصح أنواع الذخيرة المدخرة.

وها هو يكمل معناه هذا بقوله في نفس السياق والمقام:(وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صَغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ).([1])

وهذا يمنح السمة الأخيرة للحوار،ويحسم الموقف في لحظة،ويحشد الأسباب للوصول إلى النتائج المقصودة،مما يساعد على تصور الهدف من النصح،فماذا بقي من المعاني والمقاصد بعد هذه الفقرات القصار؟

---

[1]) نهج البلاغة : ٣/ ٤٩٣.

واستدعى المعنى هنا أيضاً(إنما)بتنزيل المجهول منزلة المعلوم، لاستبعاد خفائه وتأكيد وضوحه بتصدير الجملة بها،ولما كان أمر ذلك واضحاً وما استقر في عرف المخاطب عكسه لتجاهله ؛ فقد كان المقام لـ(إنما) لبيان أن مثله مما لا يخفى،إذ لا ينبغي أن يكون موضع إنكار، وأن الحكم على عكس ما استقر في العادة،وفيها تعريض بتأثير العامة على بقائه في منصبه الذي تولاه،كما أنها تترك للخيال أن يقيم قنطرة عندها ويعبرها ليصل إلى التهديد بتقييم العامة له.

ولو استعمل النفي والاستثناء هنا بدلاً من (إنما) لبدا الأمر في صورة المرفوض المشكوك فيه،وهذا ما لا يقصده المتكلم؛لأنه يعلم بأنه يخاطب مسلماً يسلم بمضمون الكلام،لا يدفعه لديه دافع وكانت(إنما) بجرسها ودلالتها على الهدوء الناعم،بدلالة أمره إياه بالإصغاء للعامة والميل إليهم،ولعلها نصيحة تبرز فيها فلسفة العالم السياسي الخبير الاجتماعي.

والقصر حقيقي قصر صفة على موصوف مما يفيد استقلال العامة بإقامة عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء، كما يفيد القصر عدم نفي أن يكون للعامة صفات أخرى غير هذه الصفات. وختم الإمام الكلام موضحاً للنصيحة وكيفية تنفيذها ومباشرتها عملياً بوسيلتين: الإصغاء والميل. "والإصغاء هو طلب إدراك المسموع بإمالة السمع إليه،يقال: صغا يصغو إذا مال وأصغى

غيره "([1]). ولذا نراه يواصل من خلال استعمال(إنما) تأكيد مراده حيث يقول:

(وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَؤُهُمْ عِنْدَكَ أَطْلَبَهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ،فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا؛فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ،وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ)([2]).

---

[1]) الفروق في اللغة :٨١.

[2]) نهج البلاغة : ٣/٤٩٣.

يحدد هنا الأطر السياسية للتعامل بين الوالي والمولى عليهم،إذ بعد التأكيد على دور العامة فيما سبق من أسلوب على الحياة السياسية، ينتقل لدور الخاصة وأنهم يجب أن ينحي الوالي دورهم، ولتأكيد معناه يلجأ للقصر بـ(إنما) لتنزيل المجهول منزلة المعلوم تأكيداً لوضوحه في ذاته وضوحاً لا يخفى على أحد،بقصر وجوب تطهير الشيء الظاهر للوالي فقط،أما ما يخفى عنه فالله كفيل به.

وكانت(إنما) للتعريض هنا بعدم استحقاق الوالي للولاية إذا تتبع خفايا الرعية،والقصر قصر موصوف على صفة،والقصر إضافي قصر قلب إذا اعتقد الوالي بوجوب تطهير ما يغيب عنه من أمور الرعية،ويجوز أن يكون قصر تعيين إذا اعتقد أن عليه تطهير الأمرين:الظاهر والباطن،فحدد القصر بتعيين أحدهما.

*** ومن قصر الأمر الخفي بتنزيله منزلة المعلوم قوله عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة:

(وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدَاً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا)([1]).

يصور أثر خضوع الكارهين لإمارته للحسد حين اتفقوا وتعاونوا على عدم الرضا بها،وما يتبع ذلك من انقطاع نظام المسلمين على كلمة واحدة، وكانت(إنما)لإبراز الرصيد المعنوي من الكلام بصورة تستدعي إثبات ما ذكر ونفيه عمن عداه، مما يعني أن الساخطين لأن يكون الإمام عليّ أميراً على المسلمين ينحصر دافعهم على ذلك في طلب الدنيا لأنفسهم حسداً عليه،فهم ليسوا إلا حاسدين طالبين للدنيا،وهو قصر إضافي قصر موصوف على صفة قصر تعيين؛لأنه يعين الحسد عند المخاطب،ويخرجه من دائرة التردد بين الحسد وعدم معرفة الاتجاه الصحيح إلى دائرة الحسم والتعيين.

و(إنما)هنا تعرِّض بميل هؤلاء النفسي عن الحق، ورغبتهم في الباطل، فترسم حسد المشاعر بعد إضمارها مطلقة عن كل ملابسة، فتحصر رغبة هذه النفوس في الاستئثار بالسلطة،وكانت (إنما) وحدها وسيلة النفوذ من وراء المعنى إلى معنى آخر،كما دلت على أن

---

[1]) نهج البلاغة : ٢/ ٣٠٢.

ذلك مما لا ينهض أن يكون مثار جدل أو إنكار، مما يستدعي الإقرار والاقتناع بالفكرة،ومما يزيد من إيقاع المعنى الصورة البيانية في قوله (فأرادوا رد الأمور على أدبارها) والاستعارة التمثيلية في تمثيل الأمور بالكائن الحي،والإرادة أمر باطني مطمور في ظلام النفس سامض، وحتى ينسجم المعنى مع جو الصورة كلها أسند الحكم لحاسة التصوير الدقيقة لتكون مفتاح الطريق للعقل وإثبات الفكرة،وتوزيع الصورة على الرقعة بنسب معينة وحتى لا تفقد تناسقها في المجموع .

و(إنما)هنا نزلت المجهول وهو إضمار الحسد منزلة المعلوم دلالة على ظهوره في ذاته،بصورة لا تخفى على أحد،مما يوحي بأنه شيء لا يمكن إخفاؤه لضخامته.فساعدت بدلالتها على الرسم والتحديد لشيء معنوي لا يتحقق ظهوره في الواقع بإظهاره في صورة المحسوس المشاهد،وتلك غاية من وجودها تزول بزوال وجودها من الكلام.كما أن اختيار القصر بـ(إنما) هنا دلالة على قدرة الإمام عليّ على الإقناع الهادئ،وتحريك الفكر الاستنتاجي وهذا كله يؤكد حسن اختيار الإمام للمفردات.

هذا ولم يفت البوصيري كشاعر أن يشير إلى مثل هذا المعنى بقوله :

لَا تَعْجَبَنَّ لِحَسُودٍ رَاحَ يُنْكِرُهَا *** تَجَاهُلًا وَهُوَ عَيْنُ الحَاذِقِ الفَهِمِ

قَدْ تُنْكِرُ العَينُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ *** وَيُنْكِرُ الفَمُّ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ([1])

*** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي قول الإمام عليّ:إلى سهل بن حنيف الأنصاري- وهو عامله على المدينة في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية-(وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ([2]) إِلَيْهَا...)([3]).

---

[1]) ديوان البوصيري : ١/ ٢٤٧ المكتبة الشاملة.

[2]) مهطعون : (هطع) الهاء والطاء والعين: أُصَيلٌ يدلُّ على إقبالٍ على الشّيء وانقياد. يقال: هَطَعَ الرّجلُ على الشّيء ببصره: أقبَلَ. وأهطعَ البعيرُ: صَوَّبَ عنقَه منقاداً. وأهْطَعَ: أسْرَع (مقاييس اللغة :٦/٤١ :أحمد بن فارس ت/ عبد السلام هارون – اتحاد الكتاب العرب- ط ١٤٢٣ ٢٠٠٢م).

[3]) نهج البلاغة : ٣/ ٥٢٩.

يزن الإمام عليّ بعض أتباع معاوية بن أبي سفيان بالميزان النقدي،ويصفهم وصفا دقيقا،يعرض أهم حلقة من أوصافهم ؛ لأن الإطار العام للمضمون كامن فيها،وقد كانت(إنما) إحدى الأدوات

للتنسيق بين المعنى والهدف،ولتقديم التسلسل الفكري والتناسق النفسي،لإظهار المجهول في صورة المعلوم إشارة إلى وضوح أمرهم وضوحاً لا يمكن إنكاره أو معارضته لكل ذي بصيرة أو بصر.والقصر إضافي قصر موصوف(الذي اختاروا معاوية) على صفة(الإقبال على الدنيا والإسراع إليها) قصر تعيين لمن اعتقد شراكتهم للدنيا وللدين، فعين أحدهما وهو إقبالهم فقط على الدنيا،وكانت(إنما)لتساعد على إكمال التكوين للتعريض بهؤلاء إذ كيف يقع اختيار الناس لمعاوية والانحياز إلى جانبه وهو على هذه الصفة ؟ فيكون التعريض بسوء الاختيار.

ولو تم استبدال(إنما) في الخطاب بالنفي والاستثناء لاستشعر المتلقي معنى الإنكار والرفض،وهذا لم يكن ليقصد إيصاله للمتلقي؛لأن الخطاب لعامل الإمام عليّ فهو أحد أتباعه وهو صاحب الخبر المساق إليه ،فكيف ينكر الوصف الوارد في؟! وبالتالي يكون الخطاب في غير موقعه،ويكون اختيار الإمام له كعامل غير صائب،وغير دقيق،وتكون هذه مخاطرة في التعبير من قبل المتكلم،تشي بعدم قدرته في الاختيار.

*** ومن القصر بـ(إنما) في الأمر الخفي من أقوال الإمام عليّ لما استخلف إلى أمراء الأجناد :

(فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُمْ بِالبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ)([1]).

تلتقي هاتان الجملتان في أداء المدلول واحدة بعد الأخرى،بطريقة تصويرية(الاستعارة في اشتروه واقتدوه) توضح أن حجب الحقوق عن الناس يضطرهم لشراء

---

[1]) نهج البلاغة : ٣/ ٥٣٦.

هذه الحقوق بطريق الرشوة،ويضطرهم أيضاً لإتيان الباطل مما يحوله إلى قدوة يتبعها الأبناء بعد الآباء،ويعقب هذا الفساد انقلاب أحوال الدولة ثم هلاكها وزوالها، وكأني هنا أرى الإمام يصف العصر الذي نعيشه بعين البصير، وكأنه يسجل بالحروف والكلمات فيلماً وثائقياً تاريخياً متكرر الأحداث والصور.

وعبر هذه الحكمة تأتي(إنما) في السياق لتعبر عن المجهول بإبرازه في صورة المعلوم،دلالة على أنه أمر واضح في ذاته وأنه إن عرض له خفاء عند المنكر المجادل فهو خفاء طارئ يزول بالتأمل،إذ لا ينبغي أن يكون موضع إنكار،كما تأتي(إنما) للتعريض بالهلاك لمن سلك هذا المسلك وسار في نفس الطريق،لئلا يتوهم أحد أن الفساد والإفساد له منبت أو قرار أو امتداد،مهما يبلغ من القوة والجاه،أو يعتقد أنه بمنأى عن سنة الله في خلقه.ولعل الإمام قصد الإشارة في هذا المعنى إلى قوله تعالى:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.([1])

والقصر إضافي قصر قلب لمن اعتقد عكس الحكم،قصر صفة(الإهلاك) على موصوف(الفساد والإفساد).ولو استخدم النفي والاستثناء في القصر لأصبحت الفكرة من الأمور التي يقع الجدال والإنكار فيها ولبدت في صورة المرفوض، وهذا يخالف الاعتراف الإنساني الواقعي بالفكرة.

***ومن القصر ب(إنما) في الأمر الخفي قول الإمام علي إلي زياد بن أبيه وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه: (فَاحْذَرْهُ إِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ؛ لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ)([2]).

---

[1]) سورة الإسراء آية (١٦).

[2]) نهج البلاغة : ٤٧٨/٣.

يقف الإمام عليٌّ في دقة التنسيق عند وحدة المنظر العام،فكانت مادته حقيقة بديهية خالدة، حين يصف معاوية بالشيطان ، ثم يتخطاها إلى دقائق الجزئيات شارحاً كيفية إتيانه للشخص المقصود،

تذكيراً لزياد عن طريق الكناية بالترغيب(بين يديه) وبالترهيب(ومن خلفه) مستغلاً خصوصية (إنما) هنا في التعبير عن مراده،من تنزيل المجهول منزلة المعلوم قصداً إلى إظهار أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع،مما يهيأ الذهن إلى استقبال مضمون الكلام،وأيضاً لإبراز الانفعال النفسي الداخلي من التعريض بوضوح شأنه وعداوته ومع ذلك تكون الغفلة عن أساليبه، اعتماداً على فطنة المتلقي ووعيه بالسياق.والقصر إضافي قصر موصوف(معاوية) على صفة(الترصد بالعداوة والإغواء) قصر قلب لمن اعتقد خلاف هذا الحكم من تقواه أو صلاحه.ولو خاطب الإمام عليّ زياد بن أبيه بالنفي والاستثناء لتغير المفهوم من السياق،إذ كيف يخاطب أعوانه وأتباعه بلهجة تعلو فيها الشدة والعنف؟ وتظهر فيها الحدة في الحوار؟ بل إلام يتجه التعبير حينئذ في الإنكار والرفض؟

ولما كان هو يستلين فهم المخاطب كانت (إنما) المعبر للوصول إلى الهدف ليدع للذهن تدبر الأمر،وصولاً إلى الإقرار بالفكرة ، وانتهاء باشتراك الطرفين(المتكلم والمتلقي)في الاعتقاد والمبدأ، ومن هنا استدعت بلاغة الإمام وجود (إنما) في السياق دون غيرها من أساليب القصر.

النتائج

١- تعدد استعمال (إنما) في أساليب الإمام عليّ ينمُّ عن هدوء الحوار عنده،وحكمة وبلاغة في الخطاب على الرغم من شدته في الحق والقتال.

٢- وجد الإمام عليٌّ في (إنما) أداة مقصودة للتأثير الوجداني، تخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة فنية ،أنشأت حواراً استدلالياً كافياً للإقناع،فناسبت بأسلوبها الهادئ تنفيذ ذلك على أرض الواقع كما في قوله :(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيْرُ مَا ظَهَرَ لَكَ) ،وكما في قوله (وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أُرَوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الخَوْفِ الأَكْبَرِ) وكما في قوله:(إِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ).

٣- ارتبطت(إنما) عند الإمام عليّ بالصورة الفنية من تشبيه كما في قوله:(إنما مثل الدنيا مثل الحية)وقوله(إنما أنا قطب الرحى)،وكناية كما في قوله:(فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة) واستعارة كما في قوله : (وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُ عَلَى الصَّالِحِيْنَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ).

٤- حسن استغلال خاصية التعريض بها وما في هذا الغرض من أسلوب مؤدب ومؤثر معاً، كما في قوله: (وَإِنَّمَا الشُّوْرَى لِلْمُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ) في التعريض بمعاوية وأنه ليس واحداً منهم،وكما في قوله : (وَإِنَّمَا الدُّنيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الأَعْمَى لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً) في التعريض بعمى المقبل على الدنيا المدبر عن الآخرة،إذ لم يقل له صراحة أنت أعمى.

٥- تعدد استعمالها في المعنى الواحد مما يؤكد خصوصيتها في تأكيد المعنى كما في قوله :(إنما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم وتغيب آجالهم) وقوله:(فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ).

٦- تبنَّت (إنما) في أساليب الإمام إيضاح الفكرة بشكل أدق وموجز، كما في قوله: (فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الجَاهِلُ وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ)،وكما في قوله(وَإِنَّمَا حَظُّ لِأَحَدِكُمْ مِنَ

الأرْضِ ذَاتِ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ قَيْدُ قَدِّه)وكما فعل في وصف أحوال الدنيا:(إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار) وقوله (إنما مثل من خبر الدنيا كمثل قوم نبا هم منزل جديب)وقوله :(إنما أنتم في الدنيا غرض منتصل فيه المنايا).

٧- كانت (إنما) أداة لعرض النموذج الإنساني المرفوض.ليبرز من خلالها جانب الشخصية حتى تتهيأ نفوس المتلقين للخبر(وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تكيدُ هذه الأُمَّة عَنْ دُنْيَاهُمْ)وكما في قوله (فَاحْذَرْهُ إِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ)،وكما في قوله: (وإِنَّما عَقَرَ نَاقَة ثَمُوْدَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فعَمَّهُمْ اللهُ بالعَذَاب لَمَّا عَمُّوهُ بالرِّضَا)،وكما في قوله(إِنَّمَا هِي كَالْمَعْلُوْفَة للْمَدَى لَا تعْرِفُ مَاذا يُرَادُ بهَا)

٨- حسن استغلال مواضع القصر بـ(إنما) في التعبير عن الأمور غير المشكوك فيها.والتي لا تكون مجالاً للشك، وفي الأمور المنزلة منزلة ذلك.

المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

١-أسلوب القصر في محكم النظم:د/هاشم الديب دار الطباعة المحمدية ط أولى ١٤١٠ه.

٢-الأعلام : خير الدين الزركلي دار العلم للملايين بيروت ط ثامنة يوليو ١٩٨٩م.

٣-الأمالي : أبوعلي القالي ط بولاق ١٣٢٤ه.

٤-الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني دار إحياء العلوم ط رابعة بيروت ١٩٩٨م.

٥-البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤٢٢ه ٢٠٠٢م.

٦-البديع في البنية والدلالة : د/ عزة جدوع مكتبة الرشد الرياض ط أولى ١٤٢٩ه٢٠٠٨م.

٧-البلاغة تطور وتاريخ: د/شوقي ضيف دار المعارف ط ثامنة ١٩٩٢م.

٨-البلاغة فنونها وأفنانها: د/فضل حسن عباس دار الفرقان عمان ط أولى ١٤٠٥ه ١٩٨٧م.

٩-البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف : د/ محمد أبو موسى دار الفكر بدون.

١٠-البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ط دار صعب بيروت ط أولى ١٩٦٨م.

١١-تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي:د/شوقي ضيف دار المعارف ط الخامسة والعشرون.

١٢- خزانة الأدب وغاية الأرب :ابن حجة الحموي ت /عصام شعيتو دار الهلال بيروت ١٩٨٧م.

١٣-دراسات جديدة في إعجاز القرآن :د/ عبد العظيم المطعني مكتبة وهبة ط أولى ١٤١٧ه.

١٤-دلائل الإعجاز:عبد القاهر الجرجاني ت/محمود محمد شاكر ط المدني جدة ط ثالثة ١٩٩٢م.

١٥-ديوان لبيد :ت/إحسان عباس الكويت ط ١٩٦٨م.

١٦- زهر الآداب وثمر الألباب :الحصري المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٥م.

١٧-سير أعلام النبلاء :الذهبي ت/نخبة من الأساتذة مؤسسة الرسالة ط ثالثة ١٤٠٥ه ١٩٨٥م.

١٨- شرح المعلقات:الحسين الزوزني ت/طه عبد الرؤف سعد دار الحرم للتراث ط أولى ١٩٦٨م.

١٩-شروح التلخيص : دار الكتب العلمية بيروت ط ١٩٩٥م.

٢٠- الشوقيات :تعليق د/يحي شامي دار الفكر العربي بيروت ط أولى ١٩٩٦م.

٢١-صبح الأعشى :أحمد بن علي القلقشندي دار الفكر دمشق ط أولى ١٩٨٧م.

٢٢- صفاء الكلمة : د/عبد الفتاح لاشين دار المريخ ط ١٤٠٣ه ١٩٨٣م.

٢٣-العقد الفريد :أحمد محمد بن عبد ربه ت/محمد سعيد العريان دار الفكر بيروت بدون.

٢٤- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية د/بسيوني فيود مؤسسة المختار ط ثانية ١٤١٩ه.

٢٥-علوم البلاغة :أحمد مصطفى المراغي المكتبة العصرية بيروت ١٤٢٨ه٢٠٠٨م.

٢٦-الفروق في اللغة : أبو هلال العسكري ت/ لجنة إحياء التراث دار الآفاق الجديدة بيروت ط خامسة ١٩٨٣م.

٢٧-فن الكتابة والتعبير: د/محمد علي أبو حمدة مكتبة الأقصى الأردن ط ثالثة ١٤١٤ه .

٢٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:أبو القاسم محمود الزمخشري ت /عبد الرازق المهدي دار إحياء التراث العربي بيروت بدون.

٢٩-لسان العرب :ابن منظور المصري دار صادر بيروت بدون.

٣٠-معاني التراكيب :د/عبد الفتاح لاشين ط دار الفكر.

٣١-معترك الأقران في إعجاز القرآن :السيوطي ت/محمد علي البجاوي ط دار الفكر العربي.

٣٢-معجم الأدباء :ياقوت الحموي ت/ مرغوليوث طبعة هندية ط ثانية.

٣٣-المعجم الوسيط :إبراهيم مصطفى-أحمد حسن الزيات- حامد عبد القادر- محمد النجار ت/مجمع اللغة العربية دار الدعوة ط ١٩٩٢م.

٣٤- المعجم الوسيط المكتبة الإسلامية تركيا بدون.

٣٥- المنقذ من الضلال :أبو حامد الغزالي دار الأندلس للطباعة بيروت ط سابعة ١٩٦٧م.

٣٦- نهج البلاغة :الشريف الرضي شرح الإمام محمد عبده دار الفجر للتراث القاهرة ٢٠٠٥م.

فهرس الأشعار:

البيت	الشاعر
أخا الدنيا أرى دنياك أفعى *** تبدل كل أونة إهابا	أحمد شوقي
أغنى الأنام تقي في ذرا جبل **يرضى القليل ويأبى الوشي والتاجا	المعري
وما المرء إلا حيث يجعل نفسه**فكن طالبا في الناس أعز المراتب	علي بن أبي طالب
فاقنع بما قسم المليك فإنما ** قسم الخلائق بيننا علامها	لبيد
أرانا لا نمل العيش فيها**وأولعنا بحرص وانتظار	عمران بن حطان
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ** على قومه يستغن عنه ويذمم	زهير بن أبي سلمى
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد**وينكر الفم طعم الماء من سقم	البوصيري
أنا الزائد الحامي الذمار وإنما** يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي	الفرزدق